

شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني

محمد بن سعيد ابن طوق المري

• [رابط الشرح الصوتي المفرغ](#)

• [رابط آخر للشرح الصوتي المفرغ](#)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
أما بعد فموضوع علم الاعتقاد العلم بالله سبحانه وتعالى، ثم ما تفرع عن هذا الأصل.
والله جل وعلا هو العظيم، فالعلم به أعظم من كل علم.
وهو جل وعلا الأكبر، فالعلم به أكبر من كل علم.
وشرف العلم من شرف المعلوم، والله تعالى أشرف معلوم، فالعلم به أشرف العلوم.
فمن وجد في نفسه همة لتلقي هذا العلم فليعلم أن هذا من بشائر الخير فليحمد الله
وليثبت وليزد.

ونحن في زمن متأخر تشتد فيه الغربة على أهل السنة، والمخرج من الفتن التي تنهش
في هذه الأمة من كل جانب هو بتوفيق الله تعالى في العلم الشرعي علم الكتاب والسنة
وأعلى ذلك وأرفعه وأسناه علم الاعتقاد.

فليشمر من يريد نجاته عن ساعد الجد في تحصيل هذا العلم، فإنه إذا كان شيئاً مهماً
في كل وقت فهو في هذا الزمن أهم وأهم.

ثم إن دراسة المعتقد ترقية في مقامات العبودية وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون.
وقد ذكر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم باسم العبودية في أشرف مقاماته فقال في
مقام الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وقال في مقام التحدي:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾.

وقال في مقام الدعاء والعبادة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾.

وفي حديث الشفاعة قول عيسى عليه السلام: "اثنوا محمدا عبدا غفر الله له"^(١).
لاحظ قوله: "اثنوا محمدا عبدا غفر الله له" هذا يدل على أنه ما نال هذا المقام العظيم
إلا بكمال عبوديته لله ومغفرة الله تعالى له.

وإذا كانت العبودية بهذه المنزلة عند الله سبحانه وتعالى فخري بك أن تستفرغ وسعك
وقواك وطاقتك كلها في تحقيقها.

والعبادة غاية الحب وغاية الخضوع فخري بالعباد أن يحرص على تحقيق هذين المقامين.

^(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

وعقيدة أهل السنة والجماعة عقيدة صافية واضحة، مستمدة من نصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، وهي عقيدة مطابقة للفترة بخلاف العقائد الأخرى المتلقاة من آراء الرجال وأقوال المتكلمين التي فيها الغموض والتعقيد والخلط والخلط.

وكيف لا يكون الفرق كبيراً والبون شاسعاً بين عقيدة نزل بها جبريل من الله سبحانه وتعالى إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وبين عقائد متنوعة مختلفة خرج أصحابها المبتدعون لها من الأرض وخلقهم الله من ماء مهين^(١).

وهذه خلاصة مختصرة معصرة في معتقد أهل السنة والجماعة أدرك عليها الإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى الأئمة قبله، ولم يزل أهل العلم يتوارثونها إلى اليوم. واسم ابن أبي زيد عبدالله واسم والده عبد الرحمن فهو عبدالله بن عبد الرحمن وهو من القيروان كان إمام المالكية في وقته وكان يعرف بمالك الصغير.

قال عنه الذهبي في أول ترجمته في سير أعلام النبلاء^(٢): الإمام العلامة القدوة الفقيه عالم أهل المغرب.

وقال في آخر ترجمته^(٣): وكان رحمه الله تعالى على طريقة السلف في الأصول لا يدرى الكلام ولا يتأول.

ومن أحسن شروح هذه المقدمة شرح الشيخ عبدالمحسن العباد أدام الله نفعه وأجرى الخير على يديه وأطال عمره في طاعة وعافية.

ورسالة ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى متن في الفقه وقد جعل ابن أبي زيد بين يدي هذا المتن مقدمة في العقيدة وهذا من كمال فقهه فالعقيدة هي الفقه الأكبر كأنه يقول لك: صحة المعتقد هو الذي ينبغي أن تبدأ به وأن يكون أكبر همك وأعظم مطلبك.

النجاة علام علقت؟ علقت على سلامة القلب

(١) انظر: قطف الجنى الداني ص ٥.

(٢) (١٠/١٧).

(٣) (١٢/١٧).

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

والقلب السليم هو الذي صلح اعتقاده واستقام توحيده وسار على منهج النبي صلى الله عليه وسلم.

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أَنَّ اللهَ إِلَهَ واحدٍ لا إلهَ غيرُهُ، ولا شبيهَ له، ولا نظيرَ له، ولا وَلَدَ له، ولا وَالِدَ له، ولا صاحبةَ له، ولا شريكَ له. ليس لأَوْلِيَّتِهِ ابتداءً، ولا لآخِرِيَّتِهِ انقضاءً، لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الوصفون، ولا يُحِيطُ بأمرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بآيَاتِهِ، ولا يَتَفَكَّرُونَ في مَاهِيَةِ ذاتِهِ، ولا يُحِيطُونَ بشيءٍ من عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، ولا يُؤْودُهُ حِفْظُهُمَا وهو العَلِيُّ العَظِيمُ.

قال رحمه الله: "باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أَنَّ اللهَ إِلَهَ واحدٍ لا إلهَ غيرُهُ..." وهذا معنى كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله التي هي أعظم كلمة، وما خلق الله تعالى الخلق إلا لتحقيقها.

وهنا مسألتان المسألة الأولى: في معنى الإله، والثانية: في تقدير الخبر.

١- معنى الإله: المعبود: لا إله إلا الله: لا معبود إلا الله، ومن الخطأ تفسيره بالقادر على الاختراع أو بالخالق لو كان كذلك لما امتنع المشركون من الدخول في الإسلام لأنهم يقولون أنه لا خالق إلا الله

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ .

٢- تقدير الخبر: خبر (لا) يشيع حذفه كما قال ابن مالك:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر إذا المراد مع سقوطه ظهر

بل لم يصرح به في القرآن انظر مثلاً إلى قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قَوْلَ﴾ لم يصرّح فيه بخبر (لا).

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ لم يصرّح بالخبر.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لم يصرّح بالخبر.

ما تقدير الخبر في لا إله إلا الله؟ قيل: موجود، لا إله موجود إلا الله، وقيل: لنا، لا إله لنا إلا الله، والصواب أن تقديره: حق، لا إله حق إلا الله، هل يوجد ما يدل على هذا التقدير؟

الجواب: نعم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾.

فمعنى هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله: لا معبود حق إلا الله.

"ولا شبهه له ولا نظير له" يعني: لا مثل لله سبحانه وتعالى فهو المتفرد بصفاته.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وعقيدة أهل السنة والجماعة إثبات

وتنزيه.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ هذا تنزيه.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ هذا إثبات.

وقد ضل في هذا الباب طائفتان:

المشبهة الذين أرادوا الإثبات فشبهوا.

والمعطلة الذين أرادوا التنزيه فعطلوا.

أما أهل السنة والجماعة فجمعوا بين الحسنيين: الإثبات والتنزيه وسلموا من الإساءتين:

التشبيه والتعطيل.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال: "هل

تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً"^(١).

"ولا ولد له ولا والد له ولا صاحبة له"

قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۚ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

^(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٥٨٥/١٥).

يعني: لم يكن أحد كفواً لله سبحانه وتعالى.
وفسره بعض السلف بالزوجة^(١)، وهذا من التفسير بالمثل قال تعالى:
﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾.

وهذا النفي يتضمن كمال أحديته سبحانه وتعالى وصمديته.
وهذه الأمور السبعة التي ذكرها هنا: "أَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ، وَلَا
نَظِيرَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ." الذي يجب النطق
به منها هو الأول وهو كلمة الإخلاص لا إله إلا الله.
"ليس لأوليَّته ابتداءً، ولا لآخريَّته انقضاءً"

معنى "ليس لأوليَّته ابتداءً": لم يسبقه عدم.

ومعنى "ولا لآخريَّته انقضاءً": لا يلحقه عدم.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾

وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر
فليس بعدك شيء"^(٢).

الجنة والنار باقيتان دائمتان لا تفنيان، وكذلك أهلهما وهذا لا ينافي كونه سبحانه
الآخر الذي ليس بعده شيء لأن بقاء الجنة والنار ليس لذاتهما بل هو مكتسب،
قال ابن أبي العز: "وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما"^(٣).

وقوله هنا: "ليس لأوليَّته ابتداءً، ولا لآخريَّته انقضاءً" أولى من قول الطحاوي: "قديم
بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء"^(٤) لماذا؟ لأنه هنا عبر بما يطابق اسمي الله الأول والآخر.

^(١) فسره به مجاهد. أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٧٣٩/٢٤).

^(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

^(٣) شرح الطحاوية لابن أبي العز (٦٢٩/٢).

^(٤) شرح الطحاوية لابن أبي العز (٧٥/١).

"والألفاظ الشرعية لها حرمة"^(١)، "والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة" قاله ابن أبي العز^(٢).

"لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الوَاصِفُونَ" لا يبلغون حقيقة صفاته، فهم يثبتون الصفات لله سبحانه وتعالى، لكنهم يفوضون الكيفية ولا يتكلمون فيها. وهذا معنى قول الإمام مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. أو كما في الرواية الأخرى: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وهذه قاعدة عظيمة طَبَّقَهَا على كل الصفات: النزول معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وهكذا في كل الصفات.

"وَلَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ" لا يحيط بأمر الله المتفكرون، يعني لا يدركون حقائق الأسماء والصفات ونحو ذلك. لا يدركون الحقائق والكيفيات، فمعنى كلامه نفى الإحاطة بحقائق الأسماء والصفات. هذا إذا جعلت الأمر بمعنى الشأن ولا يحيط بأمره المتفكرون: أي بشأنه.

لكن هنا احتمال آخر وهو أن يكون الأمر المراد به الشرعي فهم مقصرون في امتثال ما أمر الله تعالى به.

وأيهما أقرب إلى السياق المعنى الأول أو الثاني؟ الأقرب الأول أن المقصود أنهم لا يحيطون بأمره بمعنى أنهم لا يدركون حقائق وكيفيات الأسماء والصفات.

"يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ" آيات الله شرعية وكونية.

^(١) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (١١٣/١٢).

^(٢) في شرح الطحاوية (٧٠/١).

فالشرعية: آيات القرآن الكريم.

والكونية: هي الواردة في مثل قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ﴾

"ولا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَةِ ذَاتِهِ" الماهية، والكنه، والحقيقة بمعنى.

فلا يجوز البحث في كيفية الصفات كما لا يجوز البحث في كيفية الذات.

"يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بآيَاتِهِ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَةِ ذَاتِهِ" وقد ورد في الحديث أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: **"تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله عز وجل"** والحديث

أخرجه الطبراني في الأوسط^(١) والبيهقي في الشعب^(٢) من حديث ابن عمر رضي الله

عنهما مرفوعاً وحسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه كما في السلسلة الصحيحة^(٣).

وفي هذا قصة أخرجهما اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة^(٤)

حصلت لفتى ابتلي بالتكليف مع الإمام عبدالرحمن بن مهدي.

حاصل القصة أن عبدالرحمن بن مهدي بلغه عن غلام أنه يتكلم في كيفية صفات الله

عز وجل فأخبر الغلام بما بلغه من أمره، فأقر الغلام وجعل يتكلم في كيفية صفات

الله سبحانه وتعالى فقال عبد الرحمن المهدي: رويدك يا بني حتى نتكلم أول شيء في

المخلوق فإذا عجزنا عن المخلوقات فنحن عن الخالق أعجز وأعجز. النبي صلى الله عليه

وسلم رأى جبريل له ست مئة جناح، فأقر الغلام بذلك وعرف الحديث. فقال ابن

مهدي: صف لي خلقاً من خلق الله له ست مئة جناح؟ فبهت الغلام، وجعل ينظر

(١) (٦٣١٩).

(٢) (١١٩).

(٣) (٣٩٥/٤).

(٤) (٥٨٥/٣).

إليه لا يحير جوابا. فقال عبدالرحمن بن مهدي: يا بني فأني أهون عليك المسألة وأضع عنك خمس مئة وسبعة وتسعين. صف لي خلقا بثلاثة أجنحة، ركب الجناح الثالث منه موضعا غير الموضعين اللذين ركبهما الله حتى أعلم فبهت الغلام وقال لابن مهدي: يا أبا سعيد نحن قد عجزنا عن صفة المخلوق ونحن عن صفة الخالق أعجز وأعجز فأشهدك أنني رجعت عن ذلك وأستغفر الله.

فرجع الغلام عما كان ابتلي به من التكييف.

"ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء"

الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم الله. انظر إلى قول نوح عليه السلام:

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الآية.

وانظر إلى قول نبينا صلى الله عليه وسلم:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الآية.

وانظر إلى قول الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾

وانظر إلى قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

"وسع كرسيه السموات والأرض" صح عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن غير واحد من السلف من الصحابة والتابعين تفسير الكرسي بموضع القدمين^(١).

"ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم"

معنى لا يؤوده حفظهما: لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه حفظهما. وهو العلي: الذي له العلو، علو الذات، وعلو الصفات. وسيأتي الكلام عن العلو قريبا إن شاء الله. العظيم: الذي له العظمة المطلقة.

هنا مسألة قال: **"ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة"** لم يذكر إلا النطق باللسان واعتقاد بالقلب، لماذا لم يذكر عمل الجوارح مع أن العمل من الإيمان؟

^(١) انظر: تفسير عبدالرزاق (٢٥٠/٣)، وتفسير الطبري (٥٣٧/٤)، والتوحيد لابن خزيمة (٢٤٨/١).

الجواب: هو الآن يريد أن يبين لك ما يجب أن تقوله وما يجب أن تعتقده وسيأتي الكلام على الإيمان وسيقول لك هناك إن الإيمان يكون بالقلب واللسان والجوارح. فهو لا يريد أن يقول لك: إن الإيمان يكون بالقلب واللسان فقط ولا يكون بالعمل. بل يقول لك: إنه يجب عليك أن تعتقد كذا وأن تتطق بكذا وسيأتي ذكر العمل إذا تكلم عن الإيمان.

العالم الخبير، المدبر القدير، السميع البصير، العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَيَعْلَمُ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

على العرش استوى، وعلى الملك اختوى، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة، وأسمائه محدثة. كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه، وتجلّى للجبل فصار دكا من جلاله، وأن القرآن كلام الله، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد.

قال رحمه الله تعالى: "العالم الخبير" هنا نسختان العالم والعليم. ونسخة العليم أولى لأمرين:

- ١- أنه كثيرا ما يأتي في القرآن اقتران اسم العليم باسم الخبير وقد قرنه الإمام ابن أبي زيد هنا باسمه الخبير قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدَّرُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ •
- ٢- أن العالم يأتي في القرآن مقيدا بعلم الغيب أما العليم فيأتي كثيرا مطلقا غير مقيد. **العليم:** الذي له صفة العلم. **الخبير:** الذي له صفة الخبرة. **المدبر:** الذي له التدبير ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ وإن كان لم يأت ذكر المدبر اسما لله سبحانه وتعالى هكذا لذا قال الشيخ العباد^(١): "لا أعلم ما يدل على أنه من أسماء الله سبحانه وتعالى" نعم جاء وصف الله بالتدبير ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ •

(١) في قطف الجنى الداني ص ٧٢.

القدير: الذي له القدرة. **السميع:** الذي له السمع. **البصير:** الذي له البصر. **العلي:** الذي له العلو. **الكبير:** الذي له الكبر.

"وأنه فوق عرشه المجيد بذاته" هذه الجملة فيها أربع مسائل:

المسألة الأولى: إثبات العلو لله سبحانه وتعالى علو الذات وعلو الصفات. وأدلة إثبات العلو لله سبحانه وتعالى أكثر من ألف دليل كما قال ابن القيم. فكل دليل فيه تسمية الله تعالى بالعلي والأعلى فهو دليل على إثبات العلو لله سبحانه وتعالى.

وكل دليل فيه أن القرآن منزل من الله سبحانه وتعالى فهو دليل على إثبات العلو لله سبحانه وتعالى لأن التنزيل يكون من أعلى ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾. وكل دليل فيه ذكر صعود الأشياء إلى الله وعروجها إليه فهو دليل على إثبات العلو لله سبحانه وتعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

كذلك أدلة الاستواء وأدلة الفوقية فالأدلة كثيرة جدا. وقد ذكر ابن القيم في إعلام الموقعين^(١) من أنواع الأدلة ثمانية عشر نوعا وتحت كل نوع تجد في الكتاب والسنة عشرات الأدلة. وقال في نونيته^(٢):

يا قومنا والله إن لقولنا	ألفا تدل عليه بل ألفان
عقلا ونقلا مع صريح الفطرة الـ	أولى وذوق حلاوة القرآن
كل يدل بأنه سبحانه	فوق السماء مابين الأكوان
أترون أنا تاركو ذاك كله	لجائع التعطيل والهديان

وقد حصلت قصة للهمداني مع أبي المعالي الجويني وقد كان الجويني ينكر علو الله سبحانه وتعالى فقال له الهمداني: ما ضرورة يجدها أحدا في نفسه فما قال عارف قط

(١) (٦٧/٤).

(٢) ص ٩٣.

يا الله إلا توجه بقلبه إلى السماء؟ فسكت أبو المعالي وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني^(١).

وحصلت قصة قريبة من هذه لشيخ الإسلام ابن تيمية مع أحد النفاة قال شيخ الإسلام رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل^(٢): "ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا من هو من مشايخهم، وهو يطلب مني حاجة، وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكر له، وأخرت قضاء حاجته حتى ضاق صدره، فرفع طرفه ورأسه إلى السماء، وقال: يا الله، فقلت له: أنت محقق، لمن ترفع طرفك ورأسك؟ وهل فوق عندك أحد؟ فقال: أستغفر الله، ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته، ثم بينت له فساد هذا القول: فتاب من ذلك، ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فطرهم".

وجرت قصة للشيخ صالح سندي حفظه الله تعالى وهي أنه سافر إلى منطقة نائية ولقي فيها قوما وثنيين ما بلغتهم دعوة الإسلام ولا يعرفون عنه شيئا فسألهم إذا أصابكم القحط فماذا تفعلون؟ فكلهم قالوا هكذا أشاروا إلى السماء يعنون أنهم يسألون الله سبحانه وتعالى.

فالإقرار بعلو الله سبحانه وتعالى فطرة لا يستطيع أحد أن ينكرها. وقد تكلم عن هذا ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية^(٣) وذكر في آخره شيئا من خبر إقرار الحيوانات بعلو الله سبحانه وتعالى. والمسألة الثانية: الاستواء وسيأتي الكلام عليه قريبا.

المسألة الثالثة في قوله: "وَأَنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدُ بَذَاتِهِ": إثبات العرش لله سبحانه وتعالى. وقد وُصف العرش في القرآن بثلاث صفات: وُصف بالعظيم، ووُصف

(١) انظر: الانتصار لأهل الأثر (نقض المنطق) ص ٦٦، ومنهاج السنة النبوية (٥١٩/٤)، وبيان تلبيس الجهمية (٦٤٣/٢)، وسير أعلام النبلاء (٤٧٤/١٨).

(٢) (٣٤٣/٦).

(٣) ص ٥١٥-٥٢٠.

بالكريم، ووصف بالمجيد على قراءة الجر ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أما على قراءة الرفع فهي صفة لله سبحانه وتعالى.

المسألة الرابعة: قوله: "بذاته" هل يسوغ أن يعبر بهذا فيقال: "بذاته"؟
الجواب: أن الأصل أنه لا يحتاج إليه؛ لأن كل ما أضيف إلى الله سبحانه وتعالى فليس المتصف به إلا الله فإذا قيل: ينزل ربنا فليس النازل غيره.
لكن لما وجد من ينكر اتصاف الله عز وجل بهذه الصفات أحوج ذلك إلى زيادة بذاته. فلو سكتوا لسكتنا، لكن زادوا فزدنا.
قال بعض العلماء: زادوا فزدنا يعني زادوا في الباطل فزدنا في البيان ولو سكتوا لسكتنا.

ومثل هذا: غير مخلوق الأصل أن يقال القرآن كلام الله لكن لما وجد من يقول القرآن مخلوق، كان لابد من البيان لابد أن تستبين سبيل المجرمين ولا يجوز الكلام على الله سبحانه وتعالى وصفاته بغير الحق فاحتاج أهل السنة أن يقولوا: غير مخلوق.
لما وجد من يقول بالحلل والائحاد احتاج أهل السنة أن يقولوا: بائن من خلقه.
لما وجد مثلاً من يقول ينزل أمره ينزل ملك من ملائكته، احتاج أهل السنة أن يزدوا هنا فيقولوا: ينزل بذاته سبحانه وتعالى، فهو في مقابل قول أهل البدع.
والمصنف لما عبر بالذات هنا أراد الرد على من يقول إن علو الله سبحانه وتعالى مجازي ليس بحقيقي.

وعلو الصفات لا ينكره أحد، وإنما الذي ينكره المبتدعة علو الذات، والأدلة السابقة كلها رد عليهم.

"وهو في كل مكان بعلمه" هذا يدل على نفي القول بالحلل والائحاد انظر إلى قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

لاحظ أن الآية بُدئت بالعلم وخُتمت بالعلم فتكون المعية المذكورة فيها المقصود بها معية العلم.

"خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَيَعْلَمُ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"

علم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء علم أزلا ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وعلم العبد بأن الله عز وجل عليم به مطلع عليه لا يخفى عليه شيء من شأنه هذا أكبر واعظ وأعظم زاجر نزل من السماء إلى الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فسر بتفسيرين:

١- فسر بقربه تعالى بالعلم والقدرة والإحاطة وهذا الذي يظهر من كلام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى وعلى هذا كثير من المفسرين.

٢- وفسر بقرب الملائكة وهذا نظير قوله تعالى:

﴿وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ يعني

إذا قرأه جبريل، ورجح هذا المعنى ابن القيم وابن كثير، فهما قولان للمفسرين.

"على العرش استوى" مذهب السلف في الاستواء وفي غيره من الصفات إثبات

الجميع لله تعالى كما يليق بجلاله وكلامه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا

تمثيل كما قال الإمام مالك في الاستواء: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان

به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقد جاء إثبات الاستواء في سبعة مواضع من القرآن

في الأعراف، ويونس، والرعد، وطه، والفرقان، والسجدة، والحديد في كلها

﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ إلا طه ففيها ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾.

والاستواء في اللغة: الارتفاع والعلو والاستقرار والصعود.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى^(١):

(١) في النونية ص ٨٥.

ولهم عبارات عليها أربع قد حُصِّلت للفارس الطَّعَانِ وهي استقر وقد علا وكذلك ار وكذاك قد صعد الذي هو رابع
"وعلى الملكِ احتوى" فالله تعالى مالك لكل شيء وكأنه يشير بهذا إلى إبطال تفسير الاستواء بالاستيلاء كما أوله به أهل البدع.

"وله الأسماء الحسنى والصفات العلى" العلم بالله من طريق أسمائه وصفاته علم عظيم، صاحبه قد سبق السعاة، وهو مستلق على فراشه كما يقول ابن القيم^(١).

أبي بن كعب رضي الله عنه سأله النبي صلى الله عليه وسلم: **"أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟"**^(٢) طبعاً نحن الآن نعرف الجواب لأننا سمعنا الحديث من قبل لكن تخيل يُسأل عن هذا السؤال وآيات القرآن كثيرة. كأنك به تأمل فوجد أن أعظم ما في القرآن حديث الله عن نفسه ثم نظر في حديث الله عن نفسه فوجد أن أكثر آية تكلمت عن تعظيم الله وإجلاله هي آية الكرسي، فأجاب بأنها آية الكرسي.

وأنت إذا تحدثت عن الله سبحانه وتعالى فأنت تتحدث عن أعظم شيء، وأكبر شيء، وأجل شيء، وأحسن شيء، وأجمل شيء.

الله عز وجل أمر عباده أن يعرفوه بأسمائه وصفاته
﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾
وما خلق الله السماوات والأرضين إلا لهذه الغاية:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

فهذا علم عظيم تنبغي العناية به وهو فقه الأسماء الحسنى والصفات العلى.

(١) انظر: طريق الهجرتين (١/٤٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٠).

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يربط كل شيء بالله سبحانه وتعالى.
في الحديث لما رأى المرأة التي كانت تبحث عن ولدها حتى وجدته فألقمته ثديها قال
صلى الله عليه وسلم: "أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ لله أرحم بعباده من هذه
بولدها"^(١). فكان كل شيء يذكره بالله سبحانه وتعالى.

ولما أخبر أن رجلا اغتسل بدون إزار في العراء لم يقل ابتداءً: إذا اغتسلتم فاستتروا بل
قال: "إن الله حيي ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسلتم فاستتروا"^(٢).
ولما قيل له: الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: "إن الله جميل يحب
الجمال"^(٣).

لما نظر إلى البدر قال: "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في
رؤيته"^(٤). فكل شيء يربطه بالله.

وآيات القرآن تربط العبد بأسماء الله وصفاته حتى آيات الأحكام انظر إلى قوله تعالى:
﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٣٦ وَإِنْ عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا
كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٨﴾

وهنا ثلاثة أصول لمن أراد الاشتغال بالأسماء والصفات:

الأصل الأول: أنه لا أعلم بالله من الله ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾.

الأصل الثاني: أنه لا أعلم بالله من خلقه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما قال
صلى الله عليه وسلم: "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا" كما في البخاري^(٥).

الأصل الثالث: أن الله سبحانه وتعالى بالنسبة لنا غيب لم نره، فلا مجال للكلام في
هذا الباب إلا بالوحي. أسماء الله وصفاته من علم الغيب، إذا لا يجوز أن نتكلم فيها

^(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

^(٢) أخرجه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٦)، وصححه الألباني في الإرواء (٣٦٧/٧).

^(٣) أخرجه مسلم (٩١).

^(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

^(٥) (٢٠).

إلا بما جاء به الوحي. فنثبت لله سبحانه وتعالى ما أثبتته لنفسه، وما أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا نتجاوز القرآن والحديث.

وأسماء الله سبحانه وتعالى كلها حسنى قد بلغت في الحسن غايته. قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾

وكلها مشتقة ليس فيها اسم جامد، فالدهر ليس من أسماء الله سبحانه وتعالى. وهي غير محصورة بعدد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك" إلى أن قال "أو استأثرت به في علم الغيب عندك" (١).

إذا هي ليست محصورة بعدد لكن كيف نجمع بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة" (٢) هل هذا الحديث يدل على الحصر وأنها تسعة وتسعون فقط؟

الجواب: لا.

الفضل الوارد هو في هذه التسعة والتسعين، فالحديث يدل على أن هذه التسعة والتسعين من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة لو قلت مثلاً: عندي تسعة وتسعون كتاباً أعددتها لطلبة العلم هل هذا يدل على أنه لا يوجد عندك كتب أخرى؟

الجواب: لا هذا لا يدل على الحصر فكذلك هنا.

ولم يثبت في سردها حديث لكن العلماء اجتهدوا في استخراج هذه الأسماء واستنباطها كما صنع الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣) وفي التلخيص الحبير (٤) وكذلك الشيخ ابن عثيمين في القواعد المثل (٥) وكذلك الشيخ عبدالمحسن العباد في شرحه على هذا المتن المسمى قطف الجنى الداني (٦) ذكر تسعة وتسعين اسماً ورتبها على الحروف وذكر مع كل اسم دليله.

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٨٣/١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) (٢١٦/١١).

(٤) (٣١٣٠/٦).

(٥) ص ١٥.

(٦) ص ٨٥.

"لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مَخْلُوقَةً، وَأَسْمَاؤُهُ مُحَدَّثَةً"

الله سبحانه وتعالى متّصف بصفاته مُتَمِّمٌ بِأَسْمَائِهِ أَزْلاً وَأَبْداً لم يتسمّ باسم بعد أن كان غير متسم به.

وصفاته سبحانه وتعالى نوعان: ذاتية وفعلية.

فالذاتية: هي القائمة بالذات اللازمة لها أزلاً وأبداً، التي لا تتعلق بالمشيئة والإرادة كالعلم والسمع والبصر والعلو والحياة واليد والوجه.

والفعلية: وهي المتعلقة بالمشيئة والإرادة كالخلق، والرزق والنزول والمجيء.

"كَلَّمَ مُوسَى بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ ذَاتِهِ، لَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِهِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدُ، وَلَا صِفَةُ لِمَخْلُوقٍ فَيَنفَدُ" صفة الكلام صفة لله سبحانه وتعالى جاء القرآن والسنة بإثباتها.

قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾

وكلم الله موسى: فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى.
تكليماً: هذا تأكيد لحصول الكلام.

وقال تعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا رجل يحلني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي" (١).

"وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِهِ" هذا فيه إثبات صفة التجلي لله سبحانه وتعالى.
وهو يشير بهذا إلى قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَٰكِنْ

(١) أخرجه أحمد (١٥١٩٢)، وأبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١) وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٩١/٤).

أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَأَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا
وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴿الآية﴾.

"وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، ليس بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدُ، ولا صفة لمخلوقٍ فَيَنفَدُ" القرآن كلام الله
غير مخلوق.

وقد ذكر الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله تعالى قصة: أن رجلا من أهل السنة
دخل على بعض الملوك ومع الملك بعض المعتزلة فلما دخل وكان كفيفا رحمه الله
تعالى ابتداء بكلامه بعض المعتزلة فقالوا: أنت الذي تقول إن الله تعالى يتكلم؟ -طبعاً
ليس هو الذي قال هذا بل الله عز وجل هو الذي وصف نفسه بالكلام في كتابه،
لكن هكذا قالوا له- فقال: نعم. قالوا: إذا وقفت بين يدي الله تعالى يوم القيامة وقال
لك: يا هذا أين وجدت أنني أتكلم فماذا تقول؟ قال: أقول: يا رب أنت الآن تتكلم
فبهتوا.

لم يرد عليهم بآية ولا بحديث.

مع كمال علم النبي صلى الله عليه وسلم بربه وفصاحته ونصحه للأمة يمتنع ويستحيل أن
يريد بكلامه غير ظاهره. النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه بالله سبحانه وتعالى وقدرته
على الإفصاح والإبانة ونصحه للأمة مع اجتماع هذه الثلاثة يستحيل أن يريد بكلامه
غير ظاهره في أشد ما تحتاج إليه الأمة وهو العلم بالله.

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ينزل ربنا" (١) ويقول "إنكم سترون ربكم" (٢) ويقرر
الجارية على أنه سبحانه وتعالى في السماء (٣) ثم يكون كل ذلك المقصود به خلاف
ظاهره هذا من أبين المحال وأبطل الباطل.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى قصة حصلت لشيخه عبد الله ابن تيمية وهو أخو
شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ذكرها في فصل عقده في الصواعق المرسلة (٤) في أنه

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٤) (٣٢٠/١).

يستحيل مع علم المتكلم وفصاحته ونصحه يستحيل أن يريد بكلامه غير ظاهره ذكر قصة حصلت لعبدالله ابن تيمية مع بعض الجهمية وكيف أنه أفهم هذا الجهمي بأنه يستحيل مع توفر هذه الثلاثة أن يراد بالكلام غير ظاهره وكأن ابن القيم كان مستحضرا هذه القصة حين قرر هذا المعنى في النونية بأحسن تقرير وألطف أسلوب فقال رحمه الله تعالى:

فصل المعطل عن ثلاث مسائل	تقضي على التعطيل بالبطلان
ماذا تقول أكان يعرف ربه	هذا الرسول حقيقة العرفان
أم لا؟ وهل كانت نصيحته لنا	كل النصيحة ليس بالحوّان
أم لا؟ وهل حاز البلاغة كلها	فاللفظ والمعنى له طوعان
فإذا انتهت هذي الثلاثة فيه كا	ملة مبرأة من النقصان
فلأي شيء عاش فينا كاتما	للنفي والتعطيل في الأزمان

يعني ما قال مرة واحدة ينزل أمر ربنا ينزل ملك من ملائكته هو عالم بالله وناصح للأمة وقادر على الإبانة فلماذا لم يصرح ولا مرة واحدة بأنه استولى وليس: استوى؟ بأنه ينزل أمره أو ملك من ملائكته وليس: ينزل هو سبحانه وتعالى قال رحمه الله:

فلأي شيء عاش فينا كاتما	للنفي والتعطيل في الأزمان؟
بل مفصحا بالضد منه حقيقة ال	إفصاح موضحه بكل بيان
ولأي شيء لم يصرح بالذي	صرحتمو في ربنا الرحمن؟
ألجزه عن ذاك؟ أم تقصيره	في النصيح؟ أم لخفاء هذا الشأن؟
حاشاه بل ذا وصفكم يا أمة الت	تعطيل لا المبعوث بالقرآن

وهذا الدليل كما ذكر ابن القيم يقضي على التعطيل بالبطلان.
هنا تم الكلام على ما يتعلق بالأسماء والصفات.

والإيمان بالقدر خيره وشره، خلوه وممره، وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه. علم كل شيء قبل كونه، فجرى على قدره، لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَيُخَذُّهُ بِعَدْلِهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَيُؤَفِّقُهُ بِفَضْلِهِ، فَكُلُّ مَيْسَرٍ بِتَيْسِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ، مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ. تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، أَوْ يَكُونَ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنًى خَالِقًا لِكُلِّ شَيْءٍ، أَلَا هُوَ رَبُّ الْعِبَادِ وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدَّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ وَأَجَالِهِمْ. الْبَاعِثُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَ وَالنَّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَلَهُ آخِرَ الْمُرْسَلِينَ، بِشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ، وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ.

"والإيمان بالقدر خيره وشره" من هذه الجملة إلى قوله "والمقدر لحركاتهم وأجالهم" هذا كله متعلق بالإيمان بالقضاء والقدر ولابن القيم كلمة جميلة تلخص لك الكلام في الإيمان بالقضاء والقدر قال رحمه الله تعالى في صدر كتابه شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل^(١): "القدر بحر محيط لا ساحل له، ولا خروج عنه لأحد من العالمين، والشرع في سفينة النجاة، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها فهو من المغرقين" وهذا كلام عظيم يكتب بماء الذهب.

الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان الستة قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور في الإيمان: "أن تؤمن بالله" إلى أن قال: "وتؤمن بالقدر خيره وشره" أخرجه مسلم^(٢).

وفي مسلم^(١): "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل".

(١) (٧/١).

(٢) (٨).

وفي صحيح مسلم أيضا^(٢) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل شيء بقدر حتى العجز والكيس".

والإيمان بالقدر له أربع مراتب هي: العلم والكتابة والمشية والخلق وقد جمعها الناظم في قوله:

عِلْمُ كِتَابَةِ مَوْلَانَا مَشِيَّتُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِيجَادُهُ وَتَكْوِينُهُ

لو سئلت ما القدر؟ تقول: هو علم الله بالكائنات وكتابه لها ومشيته وخلقها إياها. القدر هو هذه المراتب الأربع.

المرتبة الأولى: العلم.

فتؤمن بأن الله علم ما كان وما سيكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يعلم الله ما لم يكن لو كان كيف يكون مثال ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)
بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿

هم لا يردون إلى الدنيا لكن لو ردوا فإن الله تعالى يعلم أنهم سيعودون لما نهوا عنه. وقال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ هل رأيت أمحل من هذا؟ لا يوجد شيء أشد استحالة من هذا أن توجد آلهة غير الله. لكن قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فالله يعلم ما لم يكن أن لو كان كيف يكون.

المرتبة الثانية: الكتابة.

فتؤمن بأن الله كتب كل شيء، في صحيح مسلم^(٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة" قال: "وعرشه على الماء".

(١) (٢٦٦٤).

(٢) (٢٦٥٥).

(٣) (٢٦٥٣).

وجمع هاتين المرتبتين قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾

فالآية دليل على مرتبة العلم ومرتبة الكتابة.

المرتبة الثالثة: المشيئة.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

وللإمام الشافعي أبيات هي من أحسن ما قيل في القدر نظماً كما ذكر ابن عبد البر^(١) وهي قوله:

فما شئتُ كان وإن لم أشأْ	وما شئتُ إن لم تشأْ لم يكن
خلقتُ العباد على ما علمتُ	وفي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننتُ وهذا خذلتُ	وهذا أعنتُ وذا لم تعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد	ومنهم قبيح ومنهم حسن

المرتبة الرابعة: الخلق.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

مسألة: لو قال قائل في مراتب القدر: العلم والكتابة والإرادة والخلق بأن عبر بالإرادة بدل المشيئة فهل قوله صحيح؟

الجواب: فرق بين الإرادة والمشيئة فالإرادة نوعان: إرادة كونية وإرادة شرعية. فالإرادة الكونية: هي التي لا بد أن تقع وقد تكون فيما يحبه الله وقد تكون فيما لا يحبه الله.

فكل شيء في الكون هو مرادٌ لله تعالى بالإرادة الكونية ومنها قوله تعالى:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ

ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وهذه الإرادة الكونية مرادفة للمشيئة.

^(١) انظر: الاستذكار (٢٦٥/٨).

والنوع الثاني: الإرادة الشرعية وهذه لا تكون إلا فيما يحبه الله وقد تقع وقد لا تقع.
ومن الإرادة الشرعية قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وهي مرادفة للمحبة.

فالإرادة الكونية مرادفة للمشيئة والإرادة الشرعية مرادفة للمحبة.

مسألة: قول الإمام ابن أبي زيد رحمه الله تعالى في هذه القطعة من كلامه: "تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد" هل هذه الإرادة كونية أو شرعية؟

الطالب: هذه كونية.

الشارح: أحسنت.

هاتان الإرادتان قد تجتمعان وقد ترتفعان وقد توجد إحداهما دون الأخرى فالقسمة رباعية نحتاج الآن أربعة أمثلة أريد منكم أن تبينوا نوع الإرادة في هذه الأمثلة.
١- إيمان أبي بكر؟ هذا مراد لله شرعا وكونا، شرعا لأنه يحبه الله وكونا لأنه وقع.

٢- إيمان أبي جهل؟ هذا مراد لله شرعا لا كونا.

٣- كفر أبي جهل؟ هذا مراد لله كونا لا شرعا.

٤- كفر رجل مات على الإسلام؟ ليس مرادا لله كونا ولا شرعا.

مسألة أخرى: كيف نجعل بين قوله صلى الله عليه وسلم "وتؤمن بالقدر خيره وشره"^(١) وبين قوله صلى الله عليه وسلم: "والخير كله في يديك والشر ليس إليك"^(٢).

والشر ليس إليك معناه: أن الشر لا يضاف إلى الله تعالى استقلالاً تأدبا مع الله تعالى وإنما يذكر في عموم ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ والله سبحانه وتعالى لا يخلق شرا محضا لا يكون لحكمة.

الله تعالى هو خالق كل شيء ولا يكون في ملكه إلا ما يريد لكن لا يضاف الشر إليه استقلالاً تأدبا مع الله سبحانه وتعالى وقد تأدب الجن فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِنَا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فاستعملوا "أريد" في

^(١) سبق تخريجه قريبا.

^(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

الشر، ولم يصرحوا بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى إذ الشر لا يضاف إليه تعالى
استقلالاً تأدبا معه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ .

وقد ضل في هذا الباب طائفتان: القدرية والجبرية.

القدرية نفوا القدر فالعبد عندهم هو خالق فعله.

والجبرية غلوا في إثباته فالعبد عندهم كالريشة في مهب الريح حركته كحركة المرتعش.

ويرد على الطائفتين قوله تعالى:

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيرَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كيف ذلك؟

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيرَ﴾ أثبت المشيئة للعبد إذا هذا رد على الجبرية الذين يقولون

العبد مجبور على فعله.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أثبت المشيئة لله فهذا رد على القدرية

الذين نفوا القدر.

كل فعل رأيته في القرآن مضافاً إلى العبد فهو رد على الجبرية مثلاً قوله صلى الله عليه

وسلم: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"^(١) هنا جملتان:

"اعملوا" هذا رد على الجبرية لأنه أثبت للعبد عملاً فالعبد ليس بمجبور.

"فكل ميسر لما خلق له" هذا رد على القدرية الذين نفوا القدر.

حصلت قصة توضيح فساد مذهب القدرية - والمعتزلة من القدرية - وهي أنه دخل

أعرابي على عمرو بن عبيد المعتزلي فقال: إن حمارة لي سرت فادع الله أن يردها عليه

فقال عمرو بن عبيد: اللهم إن حمارته سرت ولم ترد سرقها فاردها عليه فقال

الأعرابي: كف عني دعائك الخبيث إن كانت سرت ولم يرد سرقها فقد يريد ردها

ولا تُرد^(٢).

فهذا الأعرابي بفطرته عرف ضلال قولهم.

^(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

^(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨١٦/٤)، ودفع إيهام الاضطراب ص ٣٦٦.

ثم انتقل إلى الكلام على الإيمان بالرسول فقال: "الباعثُ الرُّسلُ إليهم لإقامةِ الحجَّةِ عليهم" أعظم نعمة أنعم الله عز وجل على عباده أن أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

والإيمان بالرسول من أصول الإيمان وهو أحد أركانه.

والرسول منهم من قص الله علينا ومنهم من لم يقصص علينا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

والذين قصُّوا علينا في القرآن من الأنبياء خمسة وعشرون نبيا، ثمانية عشر نبيا ذكروا في موضع واحد وهو قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ

دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا

وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ هؤلاء ثمانية عشر، بقي سبعة وقد جمعهم الناظم مع الإشارة إلى الثمانية عشر فقال:

في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومن كذب واحدا من الرسل فقد كذبهم جميعا والدليل على هذا قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ نوح عليه السلام كذب به قومه وهو أول رسول فكيف

كذبوا جميع المرسلين؟

الجواب: دعوة الرسل واحدة من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل لذلك قال

الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ فمن كذب واحدا

منهم فقد كذب جميعهم.

وأعظم نعمة أنعم الله عز وجل بها في آخر الزمان أن بعث رسوله الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم، فدلنا على كل خير، وحذرنا من كل شر.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

وأمة النبي صلى الله عليه وسلم أمة دعوة وأمة إجابة.

فأمة الدعوة كل إنسي وجني من حين بعثته صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة.

وأما أمة الإجابة فهم من وفقهم الله تعالى للدخول في دينه الحنيف.

وشريعته صلى الله عليه وسلم لازمة للجن والإنس قال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار" أخرجه مسلم^(١).

"وَأَنزَلَ عَلَيْهِ تَكَاثُفَ الْحَكِيمِ" ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

"وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ" سنة النبي صلى الله عليه وسلم بينت الصلاة والزكاة والحج وبينت باقي الشرائع.

"وَهَدَىٰ بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وحاجة المسلم إلى الهداية إلى الصراط المستقيم أعظم حاجة لذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة التي تجب قراءتها في كل ركعة من ركعات الصلاة فرضها ونفلها وما ذاك إلا لأهمية هذا الدعاء

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

الضَّالِّينَ﴾.

"وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ"

^(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

الساعة تطلق ويراد بها الموت عند النفخ في الصور في صحيح مسلم^(١) قال عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق". وتطلق ويراد بها البعث قال الله تعالى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ المقصود بالساعة هنا البعث.

وكل من مات فقد قامت قيامته ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله" كما في البخاري^(٢).
ولاحظ عبارة المؤلف "وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ" عبارته تشمل كل من مات قبر أو لم يقبر فحتى من لم يقبر بأن نهشته السباع أو مات غريقا فإنه يبعث
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾
والبعث يوم القيامة يكون بإعادة الأجساد التي كانت في الدنيا فلا يكون بأجساد جديدة لم تكن موجودة في الدنيا بل هذا الجسد في الدنيا هو الذي يكون البعث بإعادته يوم القيامة ما الدليل على هذا؟
الجواب: الدليل قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ لاحظ السمع الذي كان في الدنيا والبصر الذي كان في الدنيا والجلود التي كانت في الدنيا تشهد يوم القيامة إذا البعث يكون بإعادة الأجساد التي كانت في الدنيا.

وكثيرا ما يأتي في القرآن تقرير أمر البعث بثلاثة أمور:
الأول: التنبيه بخلق الإنسان أول مرة.

أين تجد في القرآن التنبيه بخلق الإنسان أول مرة في تقرير البعث؟

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾

(١) (١٩٢٤).

(٢) (٤٦٩٧).

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

الثاني: التنبيه بإحياء الأرض بعد موتها.

أين تجد هذا في القرآن؟

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا

لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾

الثالث: التنبيه بخلق السماوات والأرض وهو أعظم من خلق الناس.

أين تجد هذا؟ ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

وهذه الثلاثة ذكرها الشيخ عبدالمحسن العباد في شرحه^(١) وذكر لكل واحدة منها

شواهد كثيرة من القرآن.

وثمة أمر رابع يأتي في القرآن تقرير البعث به وهو إحياء الموتى في الدنيا وفي سورة

البقرة خمس قصص لأناس حيوا في الدنيا.

١. ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ

مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾

٢. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

٣. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي الْمَوْتِ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ

لِيُظْمِنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ

مِنْهُنَّ جُزْأً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾

٤. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾

٥. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وهذه الأدلة الأربعة المتفرقة في القرآن اجتمعت في أول سورة النبأ فكل الأدلة التي

يستدل بها على تقرير البعث في القرآن اجتمعت في صدر سورة النبأ.

(١) ص ١١٦.

أين تجد في سورة النبا تقرير البعث من خلال التنبيه بخلق الإنسان أول مرة؟
﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

وأين تجد في سورة النبا تقرير البعث من خلال التنبيه بإحياء الأرض بعد موتها؟
﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾.

وأين تجد في سورة النبا تقرير البعث من خلال التنبيه بخلق السموات والأرض؟
﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾.

وأين تجد في سورة النبا تقرير البعث من خلال التنبيه بإحياء الموتي في الدنيا؟
﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ والنوم مودة صغرى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ والمستيقظ من نومه يقول: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" إذا يتذكر بالمودة الصغرى المودة الكبرى ويتذكر بالاستيقاظ من النوم البعث بعد الموت.

وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ، وَصَفَحَ لَهُم بِالتَّوْبَةِ عَنْ كِبَائِرِ السَّيِّئَاتِ، وَغَفَرَ لَهُم الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكِبَائِرِ صَانِرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} وَمَنْ عَاقَبَهُ اللَّهُ بِنَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ، فَأَدْخَلَهُ بِهِ جَنَّتَهُ {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}، وَيُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ. وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهِ وَخَلِيفَتَهُ إِلَى أَرْضِهِ، بِمَا سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ. وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَالْحَدَّ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَيْهِ

"وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ"
مضاعفة الحسنات دلت عليها أدلة كثيرة من ذلك قوله تعالى:
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

وفي الصحيحين^(١): "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيْنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ".
ومضاعفة الحسنات نوعان:

^(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

النوع الأول: أن يعطى عليها أكثر مما تستحق.

وهذا النوع على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن تضاعف إلى عشر أمثالها، وهذه أقل مضاعفة، وتكون في كل عمل مقبول. كل عمل قبله الله منك فأقل ما تعطى عليه عشرة أمثال هذا العمل. والدرجة الثانية: أن تضاعف إلى سبع مئة ضعف.

والدرجة الثالثة: أن تضاعف فوق ذلك أضعافا كثيرة.

والنوع الثاني من مضاعفة الحسنات: أن يعطى العبد على حسنته ثواب حسنة أعظم منها وذلك كالعمرة في رمضان قال صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين^(١): "إن عمرة في رمضان تقضي حجة معي" وكالصلاة في مسجد قباء قال صلى الله عليه وسلم: "من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة". أخرجه ابن ماجه^(٢) وصححه الألباني^(٣).

"وَصَفَحَ لَهُم بِالتَّوْبَةِ عَنْ كِبَائِرِ السَّيِّئَاتِ، وَغَفَرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ"

ما الفرق بين الكبيرة والصغيرة؟

الكبيرة ما نهى عنه على وجه التعظيم، بأن تُوعِدَ عليها بعقوبة خاصة فالكبيرة فيها حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة بنار أو لعنة أو غضب مثلاً والصغيرة ما ليست كذلك. وللتوبة شروط: الإخلاص، وأن تكون في زمن التوبة، والندم، والإقلاع عن الذنب، وهذا -أي الإقلاع- هو في حق من كان ملابسا للذنب، والعزم على عدم العود، فإن كان متعلقا بحق آدمي فيضاف إلى ما تقدم رد الحق إلى صاحبه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه"^(٤).

^(١) أخرجه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦).

^(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤١٢).

^(٣) كما في صحيح الجامع الصغير (١٠٥٩/٢).

^(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

والكبائر تكفر بالتوبة، وإذا كان لها حد في الدنيا وأقيم على مرتكبها كان الحد كفارة لها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين^(١): "ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له".

وأما الصغائر فكما تكفر بالتوبة تكفر كذلك بالأعمال الصالحة وباجتناب الكبائر. تكفر بالأعمال الصالحة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ "وأَتبع السيئة الحسنة تمحها"^(٢) "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر"^(٣).

وهل تشترط التوبة في تكفير الحسنات للصغائر؟
الجواب: لا تشترط التوبة لو اشترطنا التوبة ما كان للأعمال الصالحة أثر.
كذلك اجتناب الكبائر تكفر به الصغائر قال تعالى:

﴿إِنْ جَحْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

وإذا مات المسلم وقد ارتكب كبيرة لم يتب منها فأمره إلى الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين^(٤): "ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه".

ومن المقرر عند أهل السنة والجماعة أنه لا يحبط جميع الأعمال إلا الكفر لكن يختلف في المعاصي هل تذهب ثواب الحسنات؟ من كانت له حسنات ثم وقع في معاص فهل هذه المعاصي قد تذهب ثواب حسناته أو لا؟ مثلاً شخص صام رمضان واجتهد في قراءة القرآن ثم وقع في سيئات فهل هذه السيئات قد تذهب شيئاً من حسناته التي تعب في تحصيلها؟ الذي نسبه شيخ الإسلام ابن تيمية لأكثر أهل السنة هو أن المعاصي قد تذهب ثواب الحسنات والأدلة على هذا كثيرة فمن القرآن قوله

^(١) أخرجه البخاري (٣٨٩٢).

^(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤)، والترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (٨١/٠١).

^(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣).

^(٤) أخرجه البخاري (١٨).

تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فهذه السيئة تُذهب ثواب تلك الحسنة. وقوله تعالى:

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ

فَأَحْتَرَقَتْ﴾ في البخاري^(١) أن عمر رضي الله عنه سأل الناس عنها فقالوا: الله أعلم، فقال ابن عباس: "ضربت مثلاً لعمل" قال عمر: "لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله" أي حتى أضاع ثواب أعماله الصالحة بما ارتكب من المعاصي.

هذه الآية يقول فيها الحسن البصري: "هذا مثل قلّ والله من يعقله من الناس شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبياناه أفقر ما كان إلى جنته قال: وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا"^(٢).

فالذنوب تحرق الحسنات وتذهبها ومن أوضح ما يدل لذلك حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لأعلن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضا فيجعلها الله عز وجل هباء منثوراً" قلنا: يا رسول الله صفهم لنا جلهم لنا ألا نكون منهم ونحن لا نعلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنهم أقوام إذا خلوا بحارم الله انتهكوها" أخرجه ابن ماجه^(٣) وصححه الألباني^(٤).

(١) (٤٥٣٨).

(٢) انظر: طريق الهجرتين (٨٠٦/٢).

(٣) (٤٢٤٥).

(٤) كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٢/٢).

وقد أطل في تقرير هذه المسألة وذكر الأدلة والآثار فيها الحافظ ابن رجب في فتح الباري^(١) وابن القيم في الوابل الصيب^(٢) وقال: وأكثر الناس ما عندهم خبر من السيئات التي تحبط الحسنات!

وقال رحمه الله تعالى: ليس الشأن في العمل إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه^(٣).

هنا مسألة أخرى سبق أن الحسنات تكفر الصغائر لكن هل قد تكفر الحسنات الكبائر؟

هذه المسألة تكلم عنها ابن القيم في الداء والدواء^(٤) وقرر أن الحسنات قد تكفر الكبائر بحسب قوتها وذكر أن الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات يعني الحسنة التي تأتي بها قد تكون هذه الحسنة ضعيفة منهكة لا تقوى حتى على تكفير الصغائر تقصر عن أن تكفر الصغائر فهذه الدرجة الأولى.

والدرجة الثانية: أن تكون أقوى من ذلك فتقاوم الصغائر لكنها لا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

والدرجة الثالثة: أن تقوى الحسنة على تكفير الصغائر بسبب الإخلاص فيها وإحسان عاملها وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر.

بعد أن قرر ابن القيم هذا الكلام بنحو هذا التقرير قال: "فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة".

ويدل لهذا الذي قرره حديث البغي الذي سقت كلبا فغفر الله لها^(٥)، وكذلك حديث: "بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له"^(٦).

(١) (١٩٢/١).

(٢) ص ٢٠.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) ص ٢٩٠.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٢١)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

"ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته"

الذين يدخلون النار قسمان: كفار ومسلمون عصاة.

فالكفار خالدون فيها لا يخرجون منها.

وأما المسلمون العصاة فإن من دخل النار منهم لا يخلد فيها بل يخرج منها وفي الصحيحين^(١) قوله صلى الله عليه وسلم: "انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه" وفيهما^(٢) قوله صلى الله عليه وسلم: "وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً".

لاحظ في هذا الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً" فأعظم سبب لنيل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم الإخلاص والتوحيد.

فاجب بعد ذلك ما شئت أن تعجب ممن يجعل عبادته لغير الله من الأنبياء والأولياء ومن دونهم لينال منهم الشفاعة كيف يطلب الشفاعة من الوجه الذي يكون سببا في حرمانه منها.

هو الآن يسعى في حرمان نفسه من الشفاعة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع لمن حقق التوحيد فهذا الذي يذهب ويصرف عبادته للأولياء والأنبياء من أجل أن يشفعوا له هو في الحقيقة يطلب الشفاعة من الوجه الذي يحرمه منها نسأل الله العافية.

هناك ثلاث شفاعات أجمع العلماء على أنها خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

فالأولى: شفاعته في أهل الموقف حتى يقضى بينهم وهي المقام المحمود.

والثانية: شفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها.

والثالثة: شفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب.

^(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤).

^(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩) واللفظ له.

وثمة شفاعات أخرى له ولغيره صلى الله عليه وسلم منها: الشفاعة في أقوام دخلوا النار أن يخرجوا منها يدل لها حديث: "انظروا من وجدت في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه"^(١).

والشفاعة في أقوام استحقوا دخول النار ألا يدخلوها وهذه الشفاعة أثبتها شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية وابن كثير وابن أبي العز وابن حجر في آخرين ولما ذكر ابن القيم هذا النوع من الشفاعة قال^(٢): "لم أظفر فيه بنص" وفيه أحاديث صريحة لكنها لم تصح.

ومن أثبتها استدل بعموم "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" والحديث عند أبي داود^(٣) والترمذي^(٤) وصححه الألباني^(٥).

واستدل له أيضا بحديث مرور الناس على الصراط وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: "ونبيكم قائم على الصراط يقول رب سلم سلم". والحديث في مسلم^(٦) والدعاء بالسلامة نوع من الشفاعة وعند ابن حبان^(٧): "فعند ذلك حلت الشفاعة اللهم سلم اللهم سلم" وصححه الألباني^(٨).

فمن أثبت هذا النوع من الشفاعة وهو مذهب الجمهور استدل بهذه الأدلة. والشفاعة: التوسط بجلب خير أو دفع ضرر. وهي شفاعتان: شفاعة مثبتة وشفاعة منفية.

فالشفاعة المثبتة: هي الواردة في مثل قوله تعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

والمنفية: هي الواردة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةُ﴾.

^(١) سبق تخريجه.

^(٢) في تهذيب السنن (٣/٣١٣).

^(٣) (٤٧٣٩).

^(٤) (٢٤٣٥).

^(٥) كما في صحيح الجامع الصغير (١/٦٩١).

^(٦) (١٩٥).

^(٧) (٤٦٤٢).

^(٨) كما في التعليقات الحسان (٧/٦٢).

والشفاعة المثبتة هي التي اجتمعت شروطها وهي ثلاثة شروط:
الأول: رضا الله عن الشافع قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

والشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أُرِضِيَ﴾
والشرط الثالث: إذن الله بالشفاعة قال تعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

وفي القرآن آية تجمع الشروط الثلاثة ما هي؟
الجواب: قوله تعالى:

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾

الإذن بالشفاعة والرضا عن الشافع وعن المشفوع له.

من الذين يشفعون يوم القيامة؟

يرجعون إلى ثلاثة أصناف: الملائكة و النبيون والمؤمنون، جمعهم حديث واحد في صحيح مسلم^(١): "شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين".

مسألة: كيف يجمع بين ما جاء مما ظاهره الخلود في النار لبعض العصاة مثل قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ

وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم: "من تردى من جبل

فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا"^(٢) وكذلك قال في من

تحسى سما فقتل نفسه ومن وجأ نفسه بحديدة كيف يجمع بينه وبين ما سبق من أن

من مات على التوحيد فإنه لا يخلد في النار إن دخلها بل يخرج منها؟

الجواب: هذا خلود نسبي المقصود به طول المكث.

^(١) (١٨٣).

^(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

دائماً إذا شككت فارجع إلى الأصل.

الأصل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وأنه يخرج من

النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.

وأما هذا الذي أشكل عليك فاسأل عنه أهل العلم.

المقصود بالخلود هنا طول المكث وهذا معروف في اللغة قال لبيد بن ربيعة العامري

رضي الله عنه في معلقته:

فوقفت أسأله وكيف سألنا صمًا خوالد ما يبين كلامها

قال خوالد وهي لن تبقى أبداً فالمقصود طول المكث.

وزهير بن أبي سلمى يقول:

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا

وزهير يقر بالحساب قال في معلقته:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

فالمقصود طول المكث.

وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهٖ وَخَلِيفَتَهُ إِلَى أَرْضِهِ، بِمَا سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ. وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَيْتِهِ. وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا؛ لِعَرْضِ الْأُمَمِ وَحِسَابِهَا وَعُقُوبَتِهَا وَثَوَابِهَا، وَتَوْضُحِ الْمَوَازِينِ لَوَزنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَيُؤْتَوْنَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصْلَوْنَ سَعِيرًا.

"وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ"

الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقروا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ " (١).

وفي صحيح مسلم (٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه".

وفي صحيح مسلم (٣) أيضا عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) (٢٨٣٦).

(٣) (٢٨٣٧).

أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وأعظم نعيم رؤية وجه الله الكريم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وقال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُورُونَ﴾ لما حجب أعداؤه رآه أولياؤه. وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ في آيات كثيرة تدل على هذا الأصل. وفي صحيح مسلم^(١) عن صهيب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾".

وفي الصحيحين^(٢) عن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "جنتان من فضة آيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن يروا ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن". وفي الصحيحين^(٣) أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناسا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: "هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟" قالوا: لا يا رسول الله. قال: "هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟" قالوا: لا يا رسول الله قال: "فإنكم ترونه كذلك". وفي الصحيحين^(٤) أيضا عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه قال: كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: "أما

(١) (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا".
قال ابن القيم^(١):

أَوْ مَا سَمِعْتَ مَنَادِي الْإِيمَانِ يَخُ	بِرْ عَنْ مَنَادِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ
يَا أَهْلَهَا لَكُمْ لَدَى الرَّحْمَنِ وَعْدٌ	دٌ وَهُوَ مَنَجَزُهُ لَكُمْ بِضَمَانٍ
قَالُوا أَمَّا بَيَّضْتُ أَوْجَهَنَا كَذَا	أَعْمَالَنَا ثَقَلْتُ فِي الْمِيزَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ أَدْخَلْتَنَا الْجَنَاتِ حَيْدٌ	نَ أَجْرَتَنَا حَقًّا مِنْ النَّيْرَانِ
فَيَقُولُ: عِنْدِي مَوْعِدٌ قَدْ آتَى أَنْ	أَعْطَيْكُمْوه بِرَحْمَتِي وَحَنَانِي
فَيُرَوْنَهُ مِنْ بَعْدِ كَشْفِ حِجَابِهِ	جَهْرًا رَوَاهُ مُسْلِمٌ بَيَانٍ
وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٢) :	

وَاللَّهُ لَوْلَا رُؤْيَا الرَّحْمَنِ فِي الْ	جَنَاتِ مَا طَابَتْ لَدَى الْعِرْفَانِ
أَعْلَى النَّعِيمِ نَعِيمٌ رُؤْيَا وَجْهِهِ	وَحُطَابِهِ فِي جَنَّةِ الْحَيَوَانِ
وَأَشَدُّ شَيْءٍ فِي الْعَذَابِ حِجَابِهِ	سُبْحَانَهُ عَنْ سَاكِنِي النَّيْرَانِ
وَإِذَا رَأَاهُ الْمُؤْمِنُونَ نَسُوا الَّذِي	هُمْ فِيهِ مِمَّا نَالَتِ الْعَيْنَانِ
فَإِذَا تَوَارَى عَنْهُمْ عَادُوا إِلَى	لَذَاتِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَلْوَانِ
فَلَهُمْ نَعِيمٌ عِنْدَ رُؤْيَا رُؤْيَا سَوَى	هَذَا النَّعِيمِ فَخْذًا الْأَمْرَانِ
وَقَالَ فِي الْمِيمَةِ ^(٣) :	

وَلِلَّهِ أَبْصَارٌ تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً	فَلَا الضِّمِّ يَغْشَاهَا وَلَا هِيَ تَسْأَمُ
فِيَا نَظْرَةً أَهْدَتْ إِلَى الْوَجْهِ نَظْرَةً	أَمِنْ بَعْدَهَا يَسْلُو الْحُبَّ الْمُتِمُّ
وَقَالَ ^(٤) :	

وَوَرَاءَ هَاتِيكَ السُّتُورُ مُحَجَّبٌ	بِالْحَسَنِ كُلِّ الْعِزِّ تَحْتَ لَوَائِهِ
---	---

(١) في النونية ص ٢٨٩.

(٢) في النونية ص ٢٨٩.

(٣) كما في حادي الأرواح (١٢/١).

(٤) كما في مدارج السالكين (٢١٨/٤).

لو أبصرت عينك بعض جماله لبذلت منك الروح في إرضائه
ومن المسائل المتعلقة بالجنة والنار أنهما موجودتان الآن ما الدليل على هذا؟
قال الله تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أعدت فعل ماضٍ.

وقال في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

والنبي صلى الله عليه وسلم رأى الجنة والنار في صلاة الكسوف وقال: "رأيت الجنة
فتناولت عنقودا ولو أصبته لأكتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرا
كالיום قط أفظع" (١).

والمعتزلة أنكروا وجودهما وقالوا: إنهما لا تخلقان إلا يوم القيامة؛ لأن خلقهما الآن
عبث هكذا قالوا.

ورد عليهم أهل السنة بما سبق من أن الله عز وجل أخبر أن الجنة أعدت وأن النار
أعدت والنبي صلى الله عليه وسلم رآهما وكذلك وجود الجنة الآن ليس بعبث لأن
وجود الجنة فيه ترغيب وتشويق إليها أرأيت لو قيل لك إن الجنة موجودة الآن وإذا
سألت الله الجنة ثلاثا قالت الجنة: اللهم أدخله إياي وكذلك النار موجودة الآن وإذا
استعذت بالله منها ثلاثا قالت: اللهم أعذه مني (٢) فإنك تجد في نفسك أن استشعارك
وجود الجنة الآن فيه ترغيب وتشويق إليها، واستشعارك وجود النار فيه تخويف
وتحذير منها.

وقد ورد ما يدل على حصول الانتفاع بنعيم الجنة قبل يوم القيامة وحصول الضرر
بعذاب النار قبل يوم القيامة قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي:
وهم في قبورهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ والواو
تقتضي المغايرة.

(١) أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧) ..

(٢) كما عند أحمد (١٢١٧٠)، والترمذي (٢٥٧٢)، وابن ماجه (٤٣٤٠) وصححه الألباني كما في
صحيح الجامع (٩٨٤/٢).

وفي المسند^(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة - يعلق أي يأكل ويرعى بضم اللام وحكي فيها الفتح - حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه". وفي حديث البراء الطويل عند أحمد^(٢) وأبي داود^(٣) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المؤمن: "فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره" فهذا انتفاع بنعيم الجنة قبل يوم القيامة. وقال في الكافر: "فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه" فهذا تضرر بعذاب النار قبل يوم القيامة. والجنة والنار لا تفنيان بل هما دائمتان والدليل على ذلك: أن الله عز وجل قال في المؤمنين: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾

وقال في الكافرين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٦٥﴾ والجنة التي أهبط الله منها آدم هي جنة عدن كما قال: "وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه، بما سبق في سابق عليه" وهذا مذهب الجماهير وحكي عليه الاتفاق ويدل له ما في الصحيحين من قول موسى في محاجته لآدم عليهما السلام: "يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة"^(٤) ولو كانت بستانا في الدنيا ما قال هذا الكلام.

وابن القيم ذكر في حادي الأرواح^(٥) القولين وأدلة كل قول ولم يرحح لكنه قال في الميمية^(٦):

ففي على جنات عدن فإنها منازل الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

(١) (١٥٧٩٢).

(٢) (١٨٥٣٤).

(٣) (٤٧٥٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٥) ص ٢٢.

(٦) طريق الهجرتين (١٠٨/١).

وهذا يقتضي أنه يقول: إنها جنة عدن.

"وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًّا، لِعَرْضِ الْأُمَمِ وَحِسَابِهَا وَعُقُوبَتِهَا وَثَوَابِهَا" القول في صفة المجيء كالقول في باقي الصفات أنها على ما يليق به سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ والعباد يعرضون على الله فيحاسبهم على أعمالهم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ يعرضون في صف واحد ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ ويكونون جاثين على ركبهم ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ ولا يتخلف منهم أحد ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

والحساب تقرير العباد بأعمالهم وتذكيرهم بما نسوه منها وهو نوعان: عرض ومناقشة. العرض أن تعرض على المؤمن أعماله حتى يعرف منة الله عليه. يريه الله أعماله حتى يعرف منة الله عليه في ستره ذنوبه في الدنيا وفي عفوه عن هذه الذنوب في الآخرة. وجاءت صفة العرض في الصحيحين^(١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يدنى المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه. فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا يقول: رب أعرف رب أعرف مرتين فيقول: سترتها في الدنيا وأغفرها لك اليوم ثم تطوى صحيفة حسناته".

والنوع الثاني من الحساب المناقشة وهي استقصاء الأعمال صغيرها وكبيرها والتدقيق في ذلك وعدم المسامحة عليها. وأوضح ما يمثل به هنا حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعربهم النار يوم القيامة العالم الذي طلب العلم ليقال عالم وقرأ القرآن ليقال قارئ وقد قيل والمجاهد الذي جاهد ليقال شجاع وقد قيل والمنفق الذي أنفق ليقال جواد وقد قيل أجارنا الله وإياكم^(٢).

^(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨).

^(٢) أخرج الترمذي (٢٣٨٢) عن شفيّ الأصبحي أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له: أسألك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكثنا قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله

"تُوضَعُ الْمَوَازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"
تحصى أعمال العباد ثم توزن:

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿ وفي الصحيحين^(١): "كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم". وهل هو ميزان واحد أو متعدد؟ جاء في السنة ما يدل على أنه ميزان واحد لجميع الأمم وذلك ما أخرجه الحاكم^(٢) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك". هذا الحديث صح الشيخ الألباني

صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارا على وجهه فأسندته علي طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به أثناء الليل وأثناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلانا قارئ فقد قيل ذاك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذاك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذاك" ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» وقال الوليد أبو عثمان: فأخبرني عقبة بن مسلم أن شفياء هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم، أنه كان سيفاً لمعاوية فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك، وقلنا قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون} وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (٣٥٢/١) وأصله في صحيح مسلم (١٩٠٥).

^(١) أخرجه (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

^(٢) (٨٧٣٩).

وقفه على سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال عن الموقوف^(١): "إسناده صحيح وله حكم المرفوع لأن مثله لا يقال من قبل الرأي".

أما جمعها في الآيات فباعتبار الموزون أو من باب التعظيم والتفخيم.
ومع أنه يسع السماوات والأرض فهو دقيق يزن مثاقيل الذر
﴿وَنَضْعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

ما الدليل على أن الأعمال توزن؟ الحديث السابق في الصحيحين: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم".

وما الدليل على أن الصحف توزن؟ حديث صاحب البطاقة^(٢).
وما الدليل على أن العامل يوزن؟ قوله صلى الله عليه وسلم في ساقى ابن مسعود
"والذي نفسي بيدي لهما أثقل في الميزان من أحد"^(٣).

والذي يدخل في الوزن ثلاثة أشياء:

الأول: ما عمله الإنسان في حياته سواء انقطع بموته أم استمر ثوابه بعد موته، ومما يستمر ثوابه بعد الموت العلم الذي علمه.

والثاني: ما يهدى إليه إهداء شرعياً من حسنات غيره.

^(١) في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦١٩/٢).

^(٢) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم"، قال: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء» وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة

(٢٦١/١).

(٣٩٩١).

والذي يهدى إهداء شرعياً من حسنات غيره هو الصدقة بالإجماع والنسك الحج والعمرة وقد نقل شيخ الإسلام الاتفاق عليه وقضاء الصوم الواجب عنه ففي الصحيحين^(١): "من مات وعليه صيام صام عنه وليه" على خلاف بين الفقهاء فبعضهم يخصه بالنذر وبعضهم يعممه وأما إهداء صيام النفل فلم يأت فيه دليل. والعبد ينتفع بدعاء غيره له لكن هذا لا يعتبر من الإهداء؛ لأن ثواب الدعاء للداعي وإنما ينتفع الميت بالدعاء. وأما إهداء الذكر وقراءة القرآن والصلاة فيعوزها الدليل الخاص والعبادات توقيفية على خلاف بين الفقهاء في مسألة إهداء القرب. والثالث: ما ينتج عن المقاصة بين المظلوم والظالم يؤخذ للمظلوم من حسنات ظالمه أو يؤخذ من سيئات المظلوم فتوضع على الظالم إن فئت حسنات الظالم فهذا الذي ينتج من المقاصة يدخل في الوزن. وهناك أعمال تثقل في الميزان فعلينا أن نحرص عليها من ذلك: قول سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ثقيلتان في الميزان"^(٢). ومن ذلك: قول الحمد لله قال النبي صلى الله عليه وسلم: "والحمد لله تملأ الميزان"^(٣) قارن هذا الحديث بحديث لو وزنت فيه السماوات والأرض لوسعها الميزان^(٤). قارن بين أن الميزان يسع السماوات والأرض وأن قولك الحمد لله تملأ الميزان. ومن ذلك: حسن الخلق قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق"^(٥).

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٤) سبق تخريجه قريباً.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٣٥/٢).

ومن ذلك: ما ورد في المسند^(١) وصححه الألباني^(٢) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نَحْجُ نَحْجَ نَحْمَسُ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يَتَوَفَّى فِيحْتَسِبُهُ وَالِدُهُ".

وأعظم ذلك كلمة التوحيد لحديث صاحب البطاقة^(٣).
والمسلمون في الوزن لهم ثلاثة أحوال:

١- رجحان الحسنات: فمن رحمت حسناته ولو بحسنة واحدة فإنه يدخل الجنة بلا

سابقة عذاب. ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ﴾

فمن رحمت كفة حسناته ولو بحسنة واحدة فهو إلى الجنة مباشرة بلا سابقة عذاب وهم متفاوتون في ذلك تفاوتاً عظيماً.

٢- رجحان السيئات: فهؤلاء أهل المحنة والبلية كما يقول ابن القيم نسأل الله العافية وقد جزم ابن حزم وابن القيم بأن من رحمت سيئاته فإنه يدخل النار حتماً وإن كان لا يخلد فيها وهو ظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وقال كثير من أهل العلم: إنه تحت المشيئة فيدخل النار إلا أن تحصل له شفاعاة قبل دخوله النار؛ لأن الشفاعاة تحل والناس على الصراط كما سبق في حديث: "حلت الشفاعاة اللهم سلم اللهم سلم"^(٤).

٣- تساوي الحسنات والسيئات: وهؤلاء هم أصحاب الأعراف ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ وهذا هو الثابت عن الصحابة في أصحاب الأعراف وهو المتقرر عند أهل العلم أنهم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم.

ومآلهم إلى الجنة ففي الآيات نفسها: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. ولا بن حزم كتاب اسمه التلخيص لوجوه التخليص قال فيه كلمة عظيمة لما ذكر أهل الأعراف قال^(٥): "وليتنا نكون من هذه الصفة فوالله إنها لمن أبعد آمالي التي لا أدري كيف التوصل إليها إلا برحمة الله تعالى وأما بعمل أعلمه مني فلا".

(١) (١٥٦٦٢).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٠٢/٣).

(٣) سبق تخريجه قريباً.

(٤) سبق تخريجه قريباً.

(٥) ص ١١٥.

هل يوزن الكفار؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣)
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَالَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾
السياق في الكفار والآية صريحة في وزنهم.

وأما ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ فعناها أنهم لا قدر لهم عند الله أو المنفي
الوزن النافع.

مسألة: الكفار خالدون في النار فما فائدة وزنهم؟

الجواب: في وزنهم إظهار عدل الله سبحانه وتعالى، وإظهار خزيهم، ومعرفة منزلة
الكافر في أي الدرجات من النار هو.

"وَيُؤْتُونَ صَحَافَتَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ
أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَٰئِكَ يَصَلُّونَ سَعِيرًا"

نشر الصحف وإيتاؤها موقف آخر من مواقف القيامة والبحث في هذا الموضوع مبني
على ثبوت كتابة الأعمال في الدنيا وهي قضية قطعية دلت عليها جملة من الأدلة منها
قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وكذلك قوله تعالى:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

صحيفتك التي تملؤها في الدنيا ذكرت في سورة الانفطار

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَتَبِينَ ﴿١١﴾﴾

وصحيفتك في البرزخ ذكرت في السورة التي بعدها سورة المطففين قال تعالى عن

الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ﴾

وقال عن الأبرار: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ هذا في البرزخ.

وصحيفتك في عرصات القيامة ذكرت في السورة التي بعدها سورة الانشقاق قال
تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ

أَهْلِيهِ مَسْرُورًا ﴿١٠﴾ ولما ذكر الله عز وجل الكفار قال:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾

ومثلها أيضا في آية الحاقة لكن في آية الحاقة قال بشماله فكيف يجمع بين وراء ظهره وبشماله؟

قال بعضهم: إنه تلوى يده اليسرى من وراء ظهره فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره.

وقال بعضهم: إنها تخلع وتركب من خلفه.

وقال بعضهم: إنه يخرق صدره إلى ظهره فيأخذ كتابه من وراء ظهره.

والصواب أن علينا أن نؤمن بأنه يأخذ كتابه بشماله وراء ظهره أما الكيفية فالله تعالى أعلم بها.

وأما عصاة الموحدين فقليل: يأخذونها بأيمانهم كما يأخذها غيرهم.

وقيل: يأخذونها بأيمانهم لكن بعد خروجهم من النار لماذا؟ لأنهم يقولون: هاؤم اقرؤوا كتابه وهذا كلام مسرور يبعد أن يقوله من يحمل إلى النار كما قال ابن جزي في تفسير سورة الحاقة^(١).

وقيل: يأخذونها بشمائلهم من أمامهم والله أعلم.

^(١) (٤٠٧/٢).

وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَنَاجُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي سُرْعَةِ النِّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَوْمٌ أُوْبِقَتْهُمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ. وَالْإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَرِدُهُ أَمَّتُهُ لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ. وَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَإِخْلَاصٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، يَزِيدُ بزيادةِ الأَعْمَالِ، وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا، فَيَكُونُ فِيهَا النِّقْصُ وَبِهَا الزِّيَادَةُ، وَلَا يَكْمُلُ قَوْلُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ. وَأَنَّهُ لَا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

هذا موقف آخر من مواقف القيامة وهو المرور على الصراط والصراط في اللغة: الطريق الواضح والمقصود هنا الجسر المنصوب على متن جهنم. وقد ورد ذكر الصراط في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ المقصود بالورود هنا: المرور على الصراط وليس معناه دخول جهنم. الورود في اللغة يطلق على الإشراف على الشيء دخله أم لا. يقال: ورد عليه إذا أشرف عليه دخله أم لم يدخله. من الورود الذي معه دخول قوله تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي: أدخلهم النار. ومن الورود الذي ليس معه دخول قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وموسى عليه السلام لم يدخل البئر وإنما أشرف عليها.

فليس معنى الورود في قوله تعالى: ﴿وَأَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ما منكم من أحد إلا سيدخل النار ليس هذا المقصود فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها" كما في صحيح مسلم^(١) إذا المقصود بالورود في الآية المرور على الصراط وفي الصراط مسائل:

المسألة الأولى: صفاته.

ورد في الأدلة من صفاته أنه:

١. زلق لا ثبت عليه الأقدام ولا تستقر في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الجسر فقال: "مدحضة مزلة"^(٢) ومعنى مدحضة مزلة أنه لا ثبت عليه الأقدام ولا تستقر بل تزلق.

٢. على حافتيه خطاطيف وكلايب وحسكة في الحديث السابق في الصحيحين^(٣): "عليه خطاطيف وكلايب وحسكة" الخطاطيف جمع خُطَاف والكلايب جمع كَلُوب وهما بمعنى واحد الخُطَاف والكَلُوب: الحديد المعطوفة الرأس يعلق فيها اللحم وتوضع في التنور هذه يقال لها خطاف ويقال لها كلوب. أما كيفية خطاطيف النار وكلايبها فالله أعلم بها أجازنا الله وإياكم. والحسكة: الشوك الصُّلب من حديد. وفي رواية مسلم: "وفي حافتي الصراط كلايب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به".

٣. حاد كالسيف قال أبو سعيد الخدري كما في صحيح مسلم^(٤): "بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف". وعند الحاكم^(٥) عن سلمان رضي الله عنه مرفوعاً: "ويوضع الصراط مثل حد موسى".

المسألة الثانية: من الذي يمر على الصراط؟

^(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

^(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

^(٣) انظر: الحاشية السابقة.

^(٤) (١٨٣).

^(٥) سبق تخريجه وأن الصواب وقفه على سلمان رضي الله عنه وأن له حكم الرفع لأن مثله لا يقال بالرأي.

الكفار يتساقطون في النار قبل ذلك كما في الصحيحين^(١) أن اليهود وكذلك النصارى يقولون: "عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار".

فالذين يمرون على الصراط هم المسلمون والمنافقون، يُطفأ نور المنافقين كما في صحيح مسلم^(٢)، ويهوون في النار من فوق الصراط.

كيف يدخل المنافقون النار؟

يدخلونها بالسقوط من فوق الصراط وأما الكفار فإنهم يتساقطون في النار قبل ذلك. المسألة الثالثة: أحوال المؤمنين في المرور على الصراط هذه المسألة لها شقان: أحوالهم من حيث النور والظلمة وأحوالهم من حيث السرعة.

فمن حيث النور والظلمة: قال صلى الله عليه وسلم: "فيعطون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة فإذا أضاء قدمه وإذا طفئ قام فيمر ويمرون على الصراط والصراط كحد السيف دحض مزلة فيقال: انجوا على قدر نوركم"^(٣) فهذه أحوالهم من حيث النور والظلمة.

وأما من حيث السرعة: فقد دلت الأحاديث على أنهم متفاوتون في سرعتهم على قدر أعمالهم فمنهم من يمر كالمح البصر ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الجواد ومنهم من يمر كركاب الإبل^(٤) ومنهم من يعدو عدوا ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يزحف زحفا وآخرهم رجل يتلبط على بطنه فيقول: أي رب لماذا أبطأت بي؟ فيقول: لم أبطئ بك، إنما أبطأ بك عملك^(٥).

^(١) أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣).

^(٢) (١٩١) ولفظه: "ثم يُطفأ نور المنافقين".

^(٣) أخرجه الحاكم (٣٤٢٤) وصححه الألباني انظر: شرح الطحاوية- دار السلام ص ٤١٥.

^(٤) انظر: البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

^(٥) أخرجه الحاكم (٨٥١٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وأول من يجوز الصراط نبينا صلى الله عليه وسلم وأمته كما قال صلى الله عليه وسلم: "فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته" (١).

ولا يتكلم وقت المرور على الصراط أحد إلا الرسل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم" (٢).

المسألة الرابعة: ما نتيجة العبور على الصراط؟

بينها النبي صلى الله عليه وسلم حيث قسمهم ثلاثة أقسام فقال: "فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم" (٣).

ما معنى مخدوش؟ معناه مجروح. وكذلك جاءت ألفاظ قريبة من "ناج مخدوش" منها: "مخدوش مرسل"، ومنها "مخدوش مكلم" أي أصابه الكلم والكلم: الجرح ومنها: "مخدوج به" ما معنى مخدوج به؟ "كل صلاة لا يقرأ فيها الفاتحة في الكتاب فهي خداج" أي ناقصة مخدوج به: ناقص كأن الكلايب أخذت من لحمه والعياذ بالله. وورد أيضا في لفظ: "مخردل" والمخردل: المقطع تقول: خردلت اللحم إذا قطّعت. هذه الألفاظ كلها في القسم الثاني.

وقال في القسم الثالث: "ومكدوس في نار جهنم" من تكدست الأشياء إذا ركب بعضها بعضا. وورد في لفظ: "مكدوس" وهو بمعنى مكدوس. وورد في لفظ: "منكوس" ومعناه ساقط على رأسه.

وهذه الأقسام الثلاثة جمعها ابن القيم في شطر بيت من ميميته (٤) فقال:
وخذ من تُقى الرحمن أسبغ جنةً ليوم به تبدو عيانا جهنمُ
وينصب ذاك الجسر من فوق متنها فهاوٍ ومخدوشٌ وناج مسلمٌ
والناجون بعد مرورهم على الصراط يتكلمون بكلام يدل على فرحهم الشديد ففي الحديث أنهم يقولون: "الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحدا" (١).

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٤) انظر: طريق الهجرتين (١/١١٤).

ومن مر على الصراط دخل الجنة لكن بقي موقف واحد من مواقف القيامة بعد الصراط ما هو؟

القنطرة والقنطرة في اللغة الجسر وقد جاء في البخاري^(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يخلص المؤمنون من النار فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا".

"وَالْإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَرِدُهُ أُمَّتُهُ لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَيَزَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَلَ وَغَيْرَ"

الحوض في اللغة: مجمع الماء والمقصود به هنا مجمع الماء العظيم الذي يضعه الله سبحانه وتعالى في عرصات القيامة ويرده المؤمنون. وهو الموقف الوحيد من مواقف القيامة الذي لم يرد ذكره في القرآن. مواقف القيامة كلها ذكرت في القرآن إلا الحوض فلم يرد ذكره بصراحة في القرآن. وقد بلغت الأحاديث فيه مبلغ التواتر. رواها أكثر من خمسين صحابيا كما جمع ذلك الحافظ ابن حجر وذكر رحمه الله أن بعض المتأخرين أوصلها إلى رواية ثمانين صحابيا^(٣).

ووردت في الأدلة صفات الحوض^(٤) فمن ذلك:

١. أن لون ماءه "أشد بياضا من اللبن" وفي رواية: "من الثلج" وفي رواية: "من

الورق" والورق الفضة.

٢. وأنه "أبرد من الثلج".

٣. وأن "ريحه أطيب من المسك".

٤. وأن "طعمه أحلى من العسل".

^(١) أخرجه الحاكم (٣٤٢٤) وصححه الألباني انظر: شرح الطحاوية- دار السلام ص ١٥٤.

^(٢) (٦٥٣٥).

^(٣) انظر: فتح الباري (٤٦٩/١١).

^(٤) عامتها في البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) و(٢٣٠٠) اتفاقا أو انفردا وبعض الألفاظ خارج الصحيحين.

٥. وأن "كيزانه كعدد نجوم السماء" والكيزان هي الآنية والأباريق وفي رواية: "لآنيته أكثر من نجوم السماء وكواكبها".

٦. وأن "من شرب منه شربة لم يظماً بعدها أبداً".

٧. وورد: "أنه يشخب فيه ميزابان من الجنة" ومعنى يشخب يسيل.

٨. وورد في مساحته قوله صلى الله عليه وسلم: "حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء" أخرجه مسلم^(١) وفي رواية له^(٢): "عرضه مثل طوله".

ما الفرق بين الحوض والكوثر الذي ورد ذكره في القرآن؟

(١) الكوثر في الجنة والحوض في عرصات القيامة.

(٢) الكوثر أصل الحوض ومنه يمد الحوض.

(٣) الكوثر خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ وأما الحوض فورد عند الترمذي^(٣): "إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة" وهذا الفرق الثالث القول به موقوف على صحة حديث الترمذي.

من الذين يذادون عن الحوض؟

١. المرتدون في الصحيحين^(٤): "إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم".

٢. المبتدعة المحدثون في الصحيحين^(٥): "إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك".

وفيها^(٦) كذلك: "ليذاذن رجال عن حوضي كما يذاذ البعير الضال أناديهم

ألا هلم. فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: سحقاً سحقاً" ومعنى سحقاً سحقاً: بعدا

بعدا.

(١) (٢٢٩٢).

(٢) (٢٣٠٠).

(٣) (٢٤٤٣) وصوب الترمذي إرساله وهو ظاهر اختيار الحافظ ابن حجر كما في فتح الباري (٤٦٧/١١) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١٧/٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).

(٥) أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٢٩٥).

(٦) أخرجه البخاري (٧٠٥٠)، ومسلم (٢٤٩).

٣. وثمة صنف ثالث ذكر جمع من أهل العلم أنهم ممن يذاد عن الحوض وهم من عظمت جرائمهم وكبرت ذنوبهم ذكره ابن عبد البر^(١) والقرطبي^(٢) وورد ما يدل عليه ففي مسند الإمام أحمد^(٣) وصححه محققوه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما لا يفعلون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد علي الحوض".

وقد تكون حصلت بعض إطالة في هذه المواقف من مواقف الآخرة لكنها زاد عظيم من الإيمان وهي من أعظم الزواجر عن المعاصي ومن أعظم ما يحث العبد إلى الطاعة وقد قال العجلي في كتابه الثقات^(٤): كانت امرأة جميلة بمكة ولها زوج فنظرت يوما إلى وجهها في المرأة فقالت لزوجها: أترى يرى أحد هذا الوجه لا يفتن به؟ قال: نعم. قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير. قالت: فأذن لي فيه فلافتنه. قال: قد أذنت لك. فأثته كالمستفتية فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام قال: فأسفرت عن مثل فلقة القمر. فقال لها: يا أمة الله! فقالت: إني قد فتنت بك فانظر في أمري. قال: إني سائلك عن شيء فإن صدقت نظرت في أمرك. قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك. قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك يقبض روحك أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت. فلو أدخلت في قبرك فأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قد قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت. فلو أن الناس أعطوا كتبهم لا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت. فلو أردت المرور على الصراط لاحظ هذه كلها من مواقف القيامة يذكرها بها. فلو أردت المرور على الصراط ولا تدرين تنجين أم لا تنجين أكان

^(١) في التمهيد (٢٠٠/٢٦٢)، والاستنكار (١٩٥/١).

^(٢) في الجامع لأحكام القرآن (٤/١٦٨)، والتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٧١١.

^(٣) (٥٧٠/٢).

^(٤) (١١٩/٢).

يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت فلو جيء بالموازن وجيء بك لا تدرين تخفين أم تثقلين أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت. فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت. قال: اتق الله يا أمة الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك. قال: فرجعت إلى زوجها فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطل ونحن بطالون. وأقبلت من يومئذ على الصلاة والصوم والعبادة.

"وَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَإِخْلَاصٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، يَزِيدُ بزيادة الأعمال، وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا، فَيَكُونُ فِيهَا النَّقْصُ وَبِهَا الزِّيَادَةُ، وَلَا يَكْمُلُ قَوْلُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ. وَأَنَّهُ لَا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ"

يدل لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون -أو قال: بضع وستون- شعبة فأعلاها قول لا إله إلا الله -وهذا قول باللسان- وأدناها إماطة الأذى عن الطريق -وهذا من عمل الجوارح- والحياء شعبة من الإيمان -وهذا من عمل القلب-"^(١).

فالإيمان يكون قولاً باللسان وعملًا بالجوارح وإخلاصًا بالقلب كما قال المؤلف. ويدل لدخول الأعمال قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ ما وجه الدلالة؟

الجواب: أن المقصود بالإيمان هنا الصلاة فأطلق الجميع وأراد الجزء. وكذلك حديث وفد عبد القيس لما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "أمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟"^(٢) فسر به بقوله: "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة" وهذا عمل "وإيتاء

^(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

^(٢) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

الزكاة" وهذا عمل "وصوم رمضان" وهذا عمل "وتعطوا الخمس من المغنم" وهذا عمل.

والإيمان يزيد وينقص قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾

وقد ورد التصريح بزيادة الإيمان في ست آيات من القرآن.

وهو كثير من حيث المعنى مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ هذا دليل على زيادة الإيمان إذ زيادة الهدى زيادة في الإيمان. ويدل للنقص قوله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" أخرجه مسلم^(١).

وفي الصحيحين^(٢): "ما رأيت من ناقصات عقل ودين...".

وكل دليل يدل على زيادة الإيمان فإنه يدل على نقصه كما نص على ذلك الإمام أحمد وقال ابن عينة: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص. وقد صرح بذلك الصحابة فهذا عمير بن حبيب الخطمي رضي الله عنه وهو من أصحاب الشجرة قال: "الإيمان يزيد وينقص" قيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: "إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا وضعنا فذلك نقصانه"^(٣).

وقد أحصى الشيخ عبدالرزاق العباد حفظه الله تعالى عن عشرة من الصحابة القول بزيادة الإيمان ونقصانه في كتابه "زيادة الإيمان ونقصانه"^(٤).

(١) (٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٣٢٧)، والأجري في الشريعة (٥٨٤/٢)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠١٩/٥).

(٤) ص ١٢٧

وقد نقل الإجماع على زيادة الإيمان ونقصانه جمع من الأئمة فالإمام أحمد نقل الإجماع على أن الإيمان يزيد وينقص وكذلك البخاري وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في آخرين كثر^(١).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الله تعالى رتب في كتابه على الإيمان نحو مئة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها^(٢).

الطالب: زيادة الإيمان هل لها حد معين؟

الشارح: ليس للزيادة منتهى انظر إلى حال النبي صلى الله عليه وسلم يسجد السجدة الواحدة بقدر ما يقرأ أحدنا خمسين آية. فالإيمان ليس لزيادته منتهى لأن الله عز وجل لا نهاية لكمالهما ازدادت معرفة بالله ازدت إيماناً.

"وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة"

لا يكفر أحد من المسلمين بفعل المحرمات أو بترك الواجبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية^(٣): "لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما تفعله الخوارج".

(١) انظر: المصدر السابق ص ١٢٣.

(٢) انظر: الداء والدواء ص ١٧٥.

(٣) ص ١١٣.

وَأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَأَرْوَاحُ أَهْلِ السَّعَادَةِ بَاقِيَةٌ نَاعِمَةٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وَأَرْوَاحُ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَلَا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ. وَأَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ الَّذِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. وَأَفْضَلُ الصَّاحِبَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ؛ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَأَنَّ لَا يُذَكَّرُ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ، وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ، وَيُظَنَّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ.

"وَأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وسبق أن في حديث البراء رضي الله عنه في المؤمن: "فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره. وقال في الكافر: فأفرشوه من النار. وافتحوا له بابا إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه" (١) وسبق أيضا حديث المسند (٢) "إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه". فهذا كله يشهد للجملة التي ذكرها المصنف.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

"وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسَآلُونَ" فتنة القبر حق وهي سؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه والدليل على ذلك الآية التي ذكرها المصنف ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بفتنة القبر كما في البخاري^(١) من حديث البراء رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾".

وفي الصحيحين^(٢) من حديث أسماء رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنه قد أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور مثل -أو قريبا من- فتنة المسيح الدجال". والفتنة ليست خاصة بهذه الأمة بل هي للأمم كلها. ووردت أدلة تدل على أنه تستثنى من الفتنة أصناف من الناس منهم:

١. الأنبياء فالأنبياء يُسأل عنهم ولا يُسألون في قبورهم.
٢. الشهداء وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة" أخرجه النسائي^(٣).
٣. من مات مرابطا ففي صحيح مسلم^(٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رابط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان".
٤. من مات يوم الجمعة أو ليلتها عند الترمذي^(٥) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر".

(١) (١٣٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥).

(٣) (٢٠٥٣) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (٨٢٧/٢).

(٤) (١٩١٣).

(٥) (١٠٧٤) قال الشيخ الألباني في أحكام الجنائز: الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح.

٥. من لا تكليف عليه كالصغير والمجنون؛ لأن الفتنة فرع التكليف، فمن لا تكليف عليه لا يفتن في القبر.

مسألة: هل يفتن الكافر في قبره؟

الجواب: نعم. جاء عند أحمد^(١) وأبي داود^(٢) من حديث أنس رضي الله عنه في ذكر الفتنة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وأما الكافر والمنافق..." إذا الفتنة تكون للمسلم والكافر والمنافق.

ما اسم الملكين اللذين يفتنان الناس في قبورهم؟ هما منكر ونكير ثبت بذلك الحديث^(٣).

وعذاب القبر حق وقد دلت على ذلك أدلة من القرآن من ذلك:

١. ﴿التَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ

أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ الواو تقتضي المغيرة فيكون عرضهم على النار غدوا وعشيا حاصلًا في البرزخ وهم في قبورهم ثم يوم القيامة يدخلون أشد العذاب في نار جهنم.

٢. ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ الفاء

تقتضي التعقيب بلا فاصل أغرقوا في الدنيا فأدخلوا نارًا بلا فاصل، فهذا دليل على إثبات عذاب القبر وقد استدل بها على ذلك^(٤).

٣. ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ سنعذبهم مرتين أي في الدنيا وفي البرزخ في القبر.

^(١) (١٢٢٧١).

^(٢) (٤٧٥٢).

^(٣) أخرجه الترمذي (١٠٧١) ولفظه: "إذا قبر الميت -أو قال: أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر وللآخر: النكير..." وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٧٩/٣).

^(٤) انظر: تفسير القرطبي (٣١١/١٨).

٤. ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ هذا عذاب بعد الموت مباشرة يعذبون عند قبض الروح فهذا متصل بالموت.

٥. ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾

والأدلة من القرآن على إثبات عذاب القبر كثيرة تزيد على العشر. ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر" أخرجه مسلم^(١).

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال" أخرجه مسلم^(٢).

والعذاب والنعيم واقعان على الروح والبدن. ليسا على الروح فقط أو على البدن فقط. بل الروح تنعم والبدن ينعم. وكذلك العذاب فالروح تعذب والبدن يعذب. وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية اتفاق أهل السنة على هذا أن العذاب يقع على الروح والبدن وكذلك النعيم يقع على الروح والبدن.

ثم عذاب القبر هل هو دائم؟ أو منقطع؟ هو بالنسبة للكفار دائم قال تعالى:

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ

أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ يعرضون عليها غدوا وعشيا إلى قيام الساعة.

أما العصاة فمنهم من يكون عذابه دائما ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل يجر إزاره من الخلاء خسف به فهو يتجملجمل في الأرض إلى يوم القيامة"^(٣) ومنهم من ينقطع عذابه.

^(١) (٢٨٦٧).

^(٢) (٥٨٨).

^(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٥)، ومسلم (٢٠٨٨).

وأَسباب عذاب القبر كثيرة لكن السبب المجلل الذي يجمعها كلُّها المعاصي قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه فسر المعيشة الضنك بعذاب القبر^(١) وجود إسناده ابن كثير في تفسيره^(٢). وهناك أسباب مفصلة في عذاب القبر مثلا عدم الاستنزاه من البول وكذلك النيمة كما ورد في الحديث في صاحبي القبرين^(٣) وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "استنزها من البول فإن عامة عذاب القبر منه"^(٤) والزنا والربا والنوم عن الصلاة وقد ورد في هذا أحاديث كثيرة.

وأما الوقاية من عذاب القبر فالسبب المجلل لها هو فعل الحسنات قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال مجاهد: في القبر^(٥).

وأما الأسباب المفصلة فهي كثيرة من أهمها قراءة سورة تبارك كل ليلة قال ابن مسعود رضي الله عنه: من قرأ تبارك الذي بيده الملك كل ليلة منعه الله بها من عذاب القبر وكما في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نسميها المانعة وإنها في كتاب الله سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب^(٦).

وكذلك أيضا كثرة الاستعاذة من عذاب القبر وكذلك الشهادة والرباط كما سبق أن الشهيد والمرابط يؤمنان من فتنة القبر ومن باب أولى أن يؤمنا من عذابه.

"وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَلَا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ"

الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان الستة وهم خلق من خلق الله خلقهم من نور، وهم ذوو أجنحة يأتون البشر على غير هيئتهم التي خلقوا عليها وهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى يدل له أن البيت المعمور وهو في السماء السابعة

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩٨/١٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢٤٣٩/٧).

(٢) (٣٢٤/٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

(٤) أخرجه الدارقطني (٤٦٤) وصححه الألباني في الإرواء (٣١١/١).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٥١٦/١٨).

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٤٧٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٣/٢).

يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه كما في الصحيحين^(١) وفي صحيح مسلم^(٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها".

ومنهم الموكل بالحفظ والكتابة ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَتِبِينَ﴾.

ومنهم الموكل بالتوفي ﴿قُلْ يَتَوَقَّكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾.

ومنهم الموكل بالوحي وبالقطر وبالنفخ في الصور وبالجنة وبالنار.

"وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ"

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَقَّكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾

فأضيف التوفي إلى الله سبحانه وتعالى وأضيف إلى ملك الموت.

وأضيف إلى الملائكة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.

فكيف يجمع بينها؟

الجواب: أن إضافته إلى الله لكونه الأمر به وإلى ملك الموت لكونه المباشر لقبض

الأرواح وإلى الملائكة لكونهم يأخذون الأرواح من ملك الموت بعد قبضه لها كما في

حديث البراء: "فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها"^(٣).

ثم ذكر معتقد أهل السنة والجماعة في الصحابة وبذكر الصحابة تزين المجالس قالت

عائشة رضي الله عنها: زينوا مجالسكم بذكر عمر^(٤).

الصحابي: من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على ذلك.

وقد جاءت في فضلهم آيات كثيرة لو نظرت فقط في سورة الفتح في الصفحة

الأولى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾

^(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

^(٢) (٢٨٤٢).

^(٣) سبق تخريجه.

^(٤) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٨٠/٤٤)، ومنهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥٤/٦).

وفي الصفحة الثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾
وفي الصفحة الثالثة:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ زكاهم في باطنهم بعد أن زكاهم في ظاهرهم.
وفي الصفحة الرابعة:

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾

ثم في الصفحة الأخيرة: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾
يعني: لو أنك الآن رأيت صحابيا فإما أن تراه راكعا أو ساجدا هذه حالهم.
﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ شطأه: صغاره
﴿فَفَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ يعني فقوي وغلظ واستوى على سوقه جمع ساق.
قال ابن أبي داود في حائثه:

وقل خير قول في الصحابة كلهم ولا تك طعانا تعيب وتجرح
فقد نطق الوحي المبين بفضلهم وفي الفتح آي للصحابة تمدح
وفي سورة التوبة:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

وفي سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

ومن السنة: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" ^(١) "لا تسبوا أصحابي" ^(٢) والآيات والأحاديث في فضلهم كثيرة. وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة فأفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم.

وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما كما في البخاري ^(٣): كما في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لا نعدل بأبي بكر أحدا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا نفاضل بينهم.

وقال علي رضي الله عنه: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر. قال الذهبي في تاريخ الإسلام ^(٤) معلقا على قول علي رضي الله عنه هذا: "هذا والله العظيم قاله علي رضي الله عنه وهو متواتر عنه؛ لأنه قاله على منبر الكوفة فقاتل الله الرافضة ما أجهلهم". ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإلواجب علينا التعريف بما يجب لهم من المحبة والتبجيل والترضي والتفضيل.

ويجب أيضا السكوت عما شجر بينهم وقد قال عمر بن عبد العزيز في ذلك: تلك دماء طهر الله منها أيدي فلا أخضب بها لساني. وقال الإمام أحمد: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال القحطاني في نونيته ^(١):

^(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

^(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

^(٣) (٣٦٩٧).

^(٤) (١١٥/٣).

دع ما جرى بين الصحابة في الوغى بسيفهم يوم التقى الجمعان
فقتلهم منهم وقتلهم لهم وكلاهما في الحشر مرحومان
والله يوم الحشر ينزع كل ما تحوي صدورهم من الأضغان
وهذه الأخبار لا تؤخذ من كتب التاريخ وإنما تؤخذ من صحيح السنة قال القحطاني
في نونيته^(٢):

لا تقبلن من التواريخ كل ما جمع الرواة وخط كل بنان
ارو الحديث المنتقى عن أهله سيما أولي الأحلام والأسنان
كابن المسيب والعلاء ومالك والليث والزهري أو سفيان
والصحابه كلهم عدول وهذا محل إجماع حكاه ابن عبد البر وابن الصلاح والنووي
وابن حجر وغيرهم والواجب محبتهم والثناء عليهم وذكر محاسنهم وقد قال الإمام مالك:
كان السلف يعلمون أولادهم حب أبي بكر وعمر كما يعلمونهم السورة من القرآن.
وما أجمل تلك الكلمة التي ختم بها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلامه عن
معتقد أهل السنة والجماعة في الصحابة في الواسطية^(٣) حيث قال: "ومن نظر في سيرة
القوم بعلم وبصيرة وما من الله به عليهم من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد
الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير
الأمم وأكرمها على الله تعالى".

(١) ص ٢٨.

(٢) ص ٢٩.

(٣) ص ١٢٢.

وَالطَّاعَةُ لِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وُلاَةِ أُمُورِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، وَاتَّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَاقْتِفَاءُ
آثَارِهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ فِي الدِّينِ، وَتَرْكُ مَا أَحَدَثَهُ الْمُخْدِتُونَ.
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيماً كَثِيراً

"وَالطَّاعَةُ لِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وُلاَةِ أُمُورِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ"

نصب الخليفة واجب بالإجماع وفيه المصالح العظيمة.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا
في هذه الجملة من كلام الإمام ابن أبي زيد وجوب طاعة الأمراء والعلماء وقد دل
على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ^(١) وأولو
الأمر هم العلماء والأمراء فالعلماء يلون أمر الدين، والأمراء يلون أمر الدنيا. وقد
فسره بما يشملهما ابن عباس رضي الله عنهما ورجح هذا التفسير جماعة منهم القرطبي
وابن القيم وابن كثير.

والسمع والطاعة يكون في المعروف قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في
الصحيحين ^(١): "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية
فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

وفيها ^(٢) من حديث علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما
الطاعة في المعروف".

^(١) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

^(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

وقد قال سهل بن عبد الله التستري: لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم.

وولاية الأمر تكون بواحد من ثلاثة أمور: إما أن ينص الخليفة على من بعده أو يتفق أهل الحل والعقد على خليفة أو يكون ذلك بالقهر والغلبة.

قال السفاريني:

ونصبه بالنص والإجماع وقهره فحل عن الخداع
تكون ولاية الأمر بواحد من هذه الثلاثة:

١. بالنص بأن ينص الخليفة على من بعده أي يعهد إلى رجل أن يلي الخلافة بعده كما حصل في استخلاف أبي بكر لعمر رضي الله عنهما. وقد قال عمر رضي الله عنه في مرض موته لما طلب منه أن يستخلف قال: "إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله صلى الله عليه وسلم" وهو في الصحيحين^(١).

٢. بأن يتفق أهل الحل والعقد على تعيين خليفة فيكون خليفة بذلك وقد دل على هذا اتفاق الصحابة على اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وورد ما يشير إلى ذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته قال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"^(٢) فرضيه لدينهم ورد عن علي رضي الله عنه أنه قال: رضيه لديننا فرضيناه لدينانا^(٣). وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: "ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابا فإني أخاف أن يمتن ويقول قائل أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر"^(٤).

^(١) أخرجه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣).

^(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨).

^(٣) أخرجه الأجرى في الشريعة (١٧٢١/٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٣٧٢/٧).

^(٤) أخرجه البخاري (٥٦٦٦) ومسلم (٢٣٨٧).

٣. التغلب بأن يتغلب رجل على الناس فيستقر له الأمر. كما حصل من انتزاع أبي العباس السفاح الخلافة من بني أمية فمن تغلب واستقر له الأمر وجبت طاعته إجمادا للفتنة وحقنا للدماء وحفظا لبيضة المسلمين وهذا محل إجماع. ومن حق ولاية الأمر على الرعية النصيح لهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" أخرجه مسلم^(١).

والنصيحة تكون سرا برفق ويدل لذلك قوله تعالى لموسى وهارون ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ ۖ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هذا وهو فرعون.

وقد ذهب رجل مرة إلى هارون الرشيد فقال: إني ناصحك ومشدد عليك فاقبل مني فقال: لا ولا نعمة عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره أن يقول له قولاً ليناً^(٢). يعني: بعث الله موسى وهارون إلى فرعون وأمرهما أن يقولوا لفرعون قولاً ليناً.

وفي الصحيحين^(٣) أنه قيل لأسامة رضي الله عنه: ألا تدخل على عثمان رضي الله عنه فتكلمه فقال: أترون أني لا أكله ألا أسمعكم والله لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمراً لا أحب أن أكون أول من فتحه يعني ما أحب أن يكون في كلامي ما يثير فتنة أو شراً.

وقد أخرج الإمام أحمد^(٤) عن عياض بن غنم رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه له".

ومن حقهم كذلك ترك الأولى إيثارا لموافقتهم فأبو موسى الأشعري رضي الله عنه كان يفتي الناس بالتمتع في الحج فبلغه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير

^(١) (٥٥).

^(٢) انظر: البداية والنهاية (٣٦/١٤).

^(٣) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

^(٤) (١٥٣٣٣).

المؤمنين آنذاك يأمر بالإفراد فقال: يا أيها الناس من كنا أفتيناه فتيا فليئتد فإن أمير المؤمنين قادم عليكم فيه فائتموا^(١).

وفي سنن البيهقي^(٢) عن عبدالرحمن بن يزيد أنه قال: كنا مع عبدالله بن مسعود بجمع فلما دخل مسجد منى قال: كم صلى أمير المؤمنين؟ -يعني عثمان- قالوا: أربعة. فصلى عبد الله بن مسعود أربعة. قال: فقلنا: ألم تحدثنا أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين وأبا بكر صلى ركعتين؟ فقال: بلى وأنا أحدثكموه الآن. ولكن عثمان كان إماما فما أخالفه والخلاف شر. وفي رواية له^(٣): قال عبدالله بن مسعود: إني أكره الخلاف.

ومن النصيح لهم الدعاء لهم وعدم الدعاء عليهم. وقد جاء عن غير واحد من السلف أنهم كانوا يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان. منهم الإمام أحمد والفضيل بن عياض وقد قيل للفضيل: فسر لنا هذا أي قوله: لو أن لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا في السلطان؟ فقال: إذا جعلتها في نفسي لم تعدني وإذا جعلتها في السلطان صلح فصلح بصلاحه العباد والبلاد فأمرنا أن ندعو لهم بالصلاح ولم نؤمر أن ندعو عليهم وإن ظلموا وإن جاروا؛ لأن ظلمهم وجورهم على أنفسهم وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين^(٤).

وإذا حصل منهم فسق أو جور فإنه لا يجوز الخروج عليهم؛ لأنه يترتب على الخروج عليهم من الفوضى والفساد أضعاف ما يحصل من جورهم. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين^(٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية".

(١) أخرجه مسلم (١٢٢١).

(٢) (٥٤٣٦).

(٣) (٥٤٣٥).

(٤) انظر: شرح السنة للبريهاري ص ١١٣.

(٥) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

وعامة أحاديث السمع والطاعة تجدها في الصحيحين أو في أحدهما فالمسألة من المحكمات.

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنهما: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله. قال: إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان^(١).

وقد قال الإمام أحمد: ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق^(٢).

وما أجمل قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: تكون أمور مشتهيات فعليكم بالتؤدة فإن أحدكم أن يكون تابعا في الخير خير من أن يكون رأسا في الشر. أخرجه البيهقي في الشعب^(٣).

وشرح الشيخ عبد المحسن العباد لهذه الجملة^(٤) أفرد فطبع في رسالة مستقلة لنفاسته وكل ما أخذناه في شرح هذه الجملة فهو منه.

"وَاتَّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ"

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من يعيش منكم بعدي فسيروا اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"^(٥).

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "الجماعة"^(٦).

وقد قال الإمام مالك: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها^(٧).

^(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٥)، ومسلم (١٧٠٩).

^(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٧٥/١).

^(٣) (٢٩٧/٧).

^(٤) يعني قول ابن أبي زيد: "والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم".

^(٥) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

^(٦) أخرجه أحمد (٨٣٩٦)، وأبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

^(٧) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢٠٥/٢)، واقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٦٧).

فانخير كله في اتباع ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان.

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداء من خلف
وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا قوم اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(١).
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنكم اليوم على الفطرة وإنكم ستحدثون ويحدث لكم فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهدي الأول^(٢).

"وَتَرَكُ الْمِرَاءَ وَالْجِدَالَ فِي الدِّينِ" أهل السنة والجماعة مسلمون بالنصوص مستسلمون لها منقادون لها لا يمارون ولا يجادلون بالباطل ولا يقدمون آراءهم عليها قال الله تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ وقال تعالى:

﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ وهذا في الجدل بالباطل.

أما المجادلة بالتي هي أحسن فهي مطلوبة:

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

فالجدال بالباطل منهي عنه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم" معنى الألد الخصم: الشديد اللدد الكثير الخصومة وهو في الصحيحين^(٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأخرج ابن ماجه^(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا تخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار".

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/٤٩٧).

(٢) أخرجه المروزي في السنة ص ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

"وَتَرَكُ مَا أَحَدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ"

من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع السلف الصالح وترك البدع وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" متفق عليه (٢) من حديث عائشة رضي الله عنها ولمسلم (٣): "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه: "وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة" (٤). وذكر الشاطبي في الاعتصام (٥) عن ابن الماجشون قال: سمعت مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا.

واتباع الكتاب والسنة واقتفاء آثار السلف والابتعاد عن البدع هذه أم قواعد المنهج عند أهل السنة والجماعة لذلك صدر بها ابن أبي داود في حائثه فقال: تمسك بحبل الله واتبع الهدى ولا تك بدعيا لعلك تفلح ودن بكتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله تنجو وتربح هذا آخره والله تعالى أعلم. والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) (٢٥٤) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (١٢٢٩/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) (١٧١٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) (٦٥/١).